دار المعارف

توماس وولف

ماوراء التل

ترجمة: أحمد كمال يونس



دار المعارف

THE HILLS BEYOND

BY

THOMAS WOLFE

الناشر · دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

الفصل الأول

.... وكان الموت أسبق

قريباً من منتصف شاطئ أمريكا الشمالية والمطل على المحيط الأطلنطى يقع شريط من الأرض يعرف الآن باسم «كاتوبا القديمة Old Catawba »

حقًا إن هذا الشريط موجود هناك منذ الأزل ، إلا أن تاريخه لم يعرف إلا حديثًا ، إذ جاء ذكره لأول مرة فى القصة التى روجها «هيج فرتسكيو (العجوز) Hugh Fortescue» . وأصبحت أحداث هذه القصة معروفة للجميع حتى أنه لم يعد من المستحسن تكرارها لولا أن أسطورة عجيبة دارت حولها .

فى شهر سبتمبر من عام ١٥٩٣ أبحر من ميناء « بليموث Plymouth » «فرتسكيو» أحد المغامرين الأشداء وأكثرهم

شهرة . أبحر ومعه حمولة كاملة من المؤن والمواد الأخرى ومصطحباً معه مجموعة من البحارة إلى جانب مجموعة أخرى من الرجال والنساء والأطفال بلغ عددهم مائة وسبعة أفراد قاصدًا أمريكا الشمالية بهدف إنزالهم إلى البر عند شواطئ « كاتوبا القديمة » وذلك لإنشاء مستوطنة هناك .

ومن المعلوم أن هذه المستوطنة قد تمّ إنشاؤها بعد أربعة شهور أي فى يناير سنة ١٥٩٤ ، أما فرتسكيو فقد أمضى شهرين فقط هناك . كما جاء فى روايته بعد أن ساعد المستوطنين فى إقامة الأكواخ والبيوت الخشبية ، ثم أبحر عائدًا إلى إنجلترا بعد أن استقرت المستوطنة ، وكان ظاهر الحال يدل على أن كل شيء يسير على ما يرام . وقد ذكر فرتسكيو فى روايته (وهى رواية مملوءة بالقوة القديمة) ، أنه كان فى نيته العودة إلى المستوطنة فى أوائل العام التالى حاملاً معه مؤناً جديدة ، ثم يعود مرة ثانية إلى إنجلترا حاملاً إليها المحاصيل التى زرعها المستوطنون أو ما يجده من أشياء فى هذا العالم الجديد . إلا أن بعض المشاكل التى قامت فى إنجلترا أخرت عودته بعض الوقت ، ولم تطأ أقدامه الشاطئ عند مياه « جريت سوند Great Sound » هذه المياه الرمادية اللون إلا فى أغسطس سنة ١٥٩٥ ، لقد تأخرت عودته للمستوطنة ستة شهور تقريباً حيث شاهد ما عرفه الناس جميعاً ، وهو أن

المستعمرة مازالت قائمة ، ولكن العجيب فى الأمر أن سكانها قد اختفوا تماماً . دون أن يتركوا أى أثر يرشد عنهم ، وكان التفسير المنطق لهذا الاختفاء ، هو أن الهنود الحمر ربما أبادوا المستوطنين عن آخرهم . ولكن الغريب حقًّا أن جميع الأكواخ والبيوت الخشبية كانت قائمة كما ذكر فرتسكيو ، ولكنها جردت تماماً من كل الأشياء ثمينها ورخيصها . كما لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر العنف على الإطلاق ، فالمستوطنة مهجورة تماماً إلا من يافطة (لافتة) مثبتة بمسامير على جذع شجرة بأطراف المستوطنة كتب عليها كلمة « هنا ..... » وثبت تحتها رأس سهم يلمع على لحاء الشجرة مشيراً نحو البرارى التى تحيط بالمنطقة ، وكان هذا كل ما هنالك .

التقط فرتسكيو ورجاله هذا الدليل وهو الدليل الوحيد الذى يعتمد عليه . وراحوا يبحثون فى البرارى المحيطة بكل عناية وصبر طيلة أسابيع طويلة ، ولكنهم لم يعثروا على شىء فى النهاية . لم يعثروا حتى علىآثار أقدام تنبئ عما وقع لسكان المستوطنة ، واستمر السعى وراء أى أمل لعل وعسى ، ولكن ذلك لم يتحقق . فأبحر فرتسكيو عائداً إلى إنجلترا .

هذه كانت القصة المعروفة فى ذلك الوقت ولم يظهر أى شىء جديد يلقى ضوءًا على هذا السر . ولكن العقل البشرى بطبيعته

لايقف عند سر مغلق . فمن أيام فرتسكيو استمر الناس يتعجبون لما صار إليه أمر هذه المستعمرة المفقودة ، خاصة وقد فشل التاريخ فى كشف أو تعليل هذا السر المغلق . لهذا استمر الناس وأخذوا يطلقون العنان لخيالهم فى حرية ، يبتكرون الإجابات والتعليلات من محض خيالهم .

وهكذا مرّ الزمن وقدم إلى كاتوبا القديمة مستوطنون جدد ، وبنفس الطريقة التى أتى بها سكان المستعمرات الأخرى التابعة للتاج البريطانى . وكما هو الحال فى بقية المستعمرات اتسعت رقعة كاتوبا القديمة من الشرق إلى الغرب ، وكان هذا التوسع محكوماً بالعوامل الجغرافية والاقتصادية ، فالمستوطنون الأول سكنوا منطقة تقع على طول الساحل .. ففى عام ١٦٦٠ لم يزد عدد السكان عن عشرة آلاف نسمة موزعين على شكل حزام ، ولم يتغلغلوا فى الداخل أكثر من ٧٥ إلى ١٠٠ ميل فقط ، أما بعد قرن من الزمان (١٠٠ عام) ، وقبل قيام الحرب الأهلية بلغ عدد سكان المستعمرة ٢٠٠ ألف نسمة ، وامتدت رقعة المستعمرة إلى الداخل غربًا حتى بلغت سفوح جبال « بيدمونت Piedmont » على بعد ٣٥٠ ميلاً من المحيط ، وقد تمكن الرواد الأوائل ، والصيادون الشجعان من تخطى آخر الجبال الغربى (الحاجز الغربى) ، واندفعوا فى البرارى هناك وعاشوا

شهورًا بمفردهم فى أراضى الهنود الحمر . ثم عادوا محملين بالفراء والجلود ، وبكل ما يذكرهم بالانتصارات والصيد الذى أصابوه ، وقد أقيمت المستعمرات وراء الجبال وفى البرارى فى كاتوبا الغربية فى السنوات التى تلت الحرب الأهلية مباشرة . بل كانت هذه المستعمرة نتيجة للحرب ، فقد كان أغلب سكانها من الجنود الذين منحوا مساحات من الأراضى هناك جزاء نضالهم ، ونظير خدماتهم فى الجيش .

استمرت الهجرة إلى الغرب بطيئة ، ولكن فى اطمئنان وتأكيد حتى كان الربع الأول من القرن التاسع عشر ، حين أصبح عدد السكان فى كاتوبا الغربية كبيرًا لدرجة أنهم هددوا بالخروج على طاعة الحكومة فى الشرق ، وكانت تفرض سيادتها على الجزء الغربى دون منافسة ، فقد طالب السكان فى الغرب فى أحقيتهم فى التمثيل بالمجلس التشريعى ، ولكن الشرق رفض فى إصرار وعناد هذا الطلب ، واستمر الشرق فى هذا الرفض ما دام عدد سكانه أكبر وأغلب الثروة فى أيديهم ، وهكذا بدأ الصراع بين الغرب والشرق فى الولاية ، وهو الصراع الذى دام بها لعدة سنوات .

كان هذا الصراع بين طرفين غير متكافئين ، وإن كان الوقت فى صالح الغرب . حارب الشرق أبناء عمومته فى عناد ، ولكن

الغرب بشجاعته وفتوته لم يعترف بالهزيمة ، فقد كان يجمع شمله في كل مرة ويندفع مهاجماً . أما الشرق فقد استخدم كل أسلحته المتاحة له ، والمشروعة وغير المشروعة ، ومنها أنه كان يدعى أن سكانه أكثر عراقة من سكان الغرب وأنهم ولدوا ليَحكمُوا ، وهنا قام علم الأنساب بدور مهم وعجيب ، فني أمريكا وفي باقي الدول الحديثة لا يفاخر الناس كثيرًا بما عندهم من ثراء ، بل يتطلعون أكثر إلى ما يفتقدون . فنادرًا ما يفخر الأمريكيون بثرائهم وأموالهم ، ولكنهم يفاخرون بأسرهم . فسكان « نيو إنجلند New England » مثلاً يضيعون وقتًا كثيراً في التحدث عن عائلاتهم التي انحدروا منها ، حتى أصبحت هذه الظاهرة — وخاصة في الجنوب — تملأ عليهم كل طاقاتهم وتشغل بالهم وخاصة عند النساء ، فقد أصبح المبدأ المقرر والمعمول به هناك أن المرأة التي لا تنتمي إلى عائلة لا تساوي شيئًا مذكورًا . فقد تكون المرأة فقيرة وجاهلة (وغالبًا ما تكون كذلك) لم تقرأ ولم تر شيئاً ولم تخرج من قريتها ، وقد تكون كسولة ومغرورة وسليطة اللسان وغير أمينة ولا يميزها عن السوقة أي معيار خلقي ، ولكن إذا تمكنت هذه المرأة من إثبات أن عائلتها أعرق من غيرها فوضعها يتغير في الحال ، وتصبح الزهرة الرقيقة لثقافة الجنوب ، ولا يصح مطلقًا الاعتراض على ماتقول ، فهي في اختصار شديد «سيدة» .

وهكذا كان الحال ، وخاصة إبّان المرحلة الأخيرة فى الحرب التى دارت بين سكان الغرب والشرق . ولهذا لجأ الشرق ، فى كفاحه (ولكى يحتفظ بحقه فى الحكم) إلى هذه الظاهرة ، وهو انتسابه إلى عائلة ، ولأن سكانه قد شعروا بعدم جدوى كفاحهم بعد أن ركنوا إلى الدعة ،وأصبح من اللازم استسلامهم للرجل الجديد الآتى من الغرب . ولما زاد شعورهم باقتراب سقوطهم ، كرهوا أن يفكروا فى المستقبل ولجئوا لما هو معمول به فى مثل هذه الظروف لجئوا إلى أمجاد الماضى ، والذى كان من نسج خيالهم ، ليجدوا فيه التعويض عما كان يهددهم بالقضاء على مستقبلهم وإليك ما حدث :

كانت كل الأنباء حول المستعمرة المفقودة كما رواها فرتسكيو العجوز ، معروفة منذ زمن بعيد لكافة سكان القسم الشرقى من الولاية . إلا أن الغموض الذى أحاط باختفاء سكانها قد شغل أفكار الناس دائماً ، وانتشرت القصص والروايات حول هذا الاختفاء ، وقد جاء فى إحدى هذه القصص أن هؤلاء المستعمرين لم يفنوا ، بل إنهم وقعوا أسرى فى أيدى إحدى القبائل الهندية التى نقلتهم بعيداً إلى البرارى ، حيث تعلم هؤلاء مع مرور الزمن اللغة الهندية واتخذوا العادات الهندية أيضًا . وتزوجوا منهم ومن بعدهم تزوج أبناؤهم بدورهم من المستعمرين

الذين وفدوا فى وقت لاحق ، وطبقًا لهذه القصة فإن المستعمرة بقيت على قيد الحياة ، وأصبح لسلالاتهم الحق فى الانتماء إلى أقدم الأسر الإنجليزية من أى أناس آخرين فى العالم الجديد ، وهكذا أصبحوا أقدم من سكان « جيمس تاون Jamestown» الذين جاءوا بعدهم بثلاثة عشر عامًا ، وكذا سكان « بليموث Plymouth » الذين وفدوا بعد ست وعشرين سنة .

وبالرغم من انتشار هذه القصة على اعتبار أنها جزء من التراث فإن أحدًا لم يعترف بصدق ما جاء فيها ، واستمر الحال على هذا النحو إلى قبل عشر سنوات فقط للحرب الأهلية ، حين نشر أحد مدرسى التاريخ فى إحدى المدارس الثانوية كتاباً بعنوان « تاريخ المستعمرة المفقودة »، وعندئذ فرضت القصة نفسها على الناس بالرغم من أن الكتاب لم ينل نجاحًا ضئيلاً فى العالم ، فقد اعتبرته دوائر المثقفين أنه مجرد محاولة لتوضيح ما يمكن أن يكون قد وقع لسكان هذه المستعمرة ، وحتى المؤلف ذاته ، لم يكلف نفسه عناء إثبات نظريته والتى تقول إن هؤلاء المستعمرين لم يندثروا بل ظلوا أحياء عن طريق تصاهرهم مع الهنود الحمر ، أما فى ولاية «كاتوبا» فقد قوبل الكتاب بترحاب كبير وأقبل الناس على قراءته ، فقد كان الوقت مناسبًا لانتشاره ، واتخذوا مما جاء فى

روايته محوراً لقصص أخرى أسرف خيالهم فى نسجها ، واتخذوا
من أقل وأتفه التفاصيل حجر زاوية لقصص من المغامرات
والإثارة ، وقد تفوق فى هذا المضمار النساء على الجميع . وذهب
الكثير من الناس إلى الاعتقاد الراسخ بأنهم هم السلالة الباقية فى
الحياة لأجدادهم سكان المستعمرة المفقودة ، وتكونت جمعيات
أطلقت على نفسها « جمعية أبناء وبنات المستوطنين الأصليين
الأوائل » ، وعقدوا العزم على التمسك بمكانتهم فى المجتمع
باعتبارهم من أقدم العائلات ، وقد وجدوا فى أحداث الماضى
وأمجاده ومغامراته مادة دسمة لرواية القصص عن أجدادهم ، حتى
أصبح من دواعى فخر المرء أن يدعى بأن دمه الذى يجرى فى
عروقه قد امتزج بدم الهنود الحمر . وانتشرت هذه الجمعيات
وازدهرت وأصبح لها تأثير واضح فى الحياة السياسية ، ففى عام
١٨٥٨ اختاروا واحداً ممن ينتمى إلى هذه الجمعيات ليتولى
الحكم ، ونافسه على هذا المنصب محام من البرارى المحيطة
بالمقاطعة . وقد شد هذا المحامى اهتمام سكان الولاية بدفاعه
القوى عن الديمقراطية ، معلناً أن الزمرة الأرستقراطية الحاكمة
فى الشرق قد انتهى عهدها وانقضى ، بالرغم من ثرائها وما لها من
مميزات ، وقد اتخذ أتباعه شعار « المعركة بين الحى والميت » وتحت
هذا الشعار تمكن الغرب من الانتصار فى المعركة وانهزم الشرق .

وأصبح هذا المحامى بطلاً يرمز إلى فتوة الغرب وقوته .

وهكذا أصبح « زخريا جوينر » (وهو هذا المحامى) مشهوراً ومحبوباً عند كل من عاش على أرض «كاتوبا » وتنفس هواءها . وقد عرف طوال حياته بدفاعه القوى الجرىء عن الشعب ، وقد كان دائم السخرية من فكرة الانتماء إلى السكان الأوائل ، ولم يترك فرصة تمر دون أن يجعلها مثاراً للضحك ، أما منافسه فقد كان أحد أبناء البيوتات الأرستقراطية الغنية ، ورث الأرستقراطية والثراء عن والدته التى كانت تنتمى إلى سكان المستعمرة الأوائل ، وقد كان شعاره « يجب إنقاذ تراثنا الثمين وإنقاذ حياتنا من هؤلاء الغربيين الغلاظ » .

ولم يكن انتصار « زخريا جوينر » على منافسه فى تولى أمور الحكم مجرد انتصار الجزء الغربى على الجزء الشرقى من الولاية . بل كان فى حقيقته انتصاراً للرجل المعادى من هؤلاء المغمورين فى كل مكان ، هؤلاء الدين أداروا العجلات وضربوا الأرض بفئوسهم وحرثوها وشقوا الطرق عبر البرارى . لقد كان « زخريا » هذا تجسيداً كاملاً لفكر ولغة كل من عاش ومات على هذه الأرض مدافعاً عن كرامة الإنسان .

الفصل الثانى

رجل القبيلة العجوز

لم يكن « زخريا جوينر » منتمياً إلى هذا الصنف من الناس الذين جعلوا كل همهم فى تمجيد عائلاتهم ، بل كان على العكس من ذلك ، فكثيراً ما كان يقول عندما كان حاكماً (لو أنفق أهل الشرق من ولاية « كاتوبا » وقتاً أقل فى البحث عن أصولهم ونسبهم واهتموا أكثر بواقعهم لكانوا أكثر استعداداً لتقبل حياتهم) .

وكان « زخريا جوينر » لا يطيق أن يرى تلك المحاولات التى تعمل لتعظيم نسبه وعائلته ، لذلك لم يجرؤ أحد من سكان الولاية – حتى إبّان ذيوع شهرته – على وصفه بأنه ينتمى إلى سكان المستعمرة المفقودة ، ومع ذلك فقد ألفوا روايات تضمنت

أفعال عائلته على مر التاريخ ، وتعمقت هذه الروايات بحثاً فى خبايا التاريخ إلى أن وصلت إلى القرون الوسطى ، حيث تحدثت عن رجل ينتمى إلى عائلة جوينر دافع بشجاعة منقطعة النظير عن الملك ريتشارد قلب الأسد ، حينما أحاط به بعض المقاتلين أمام أسوار أورشليم ، كما ظهر كذلك أن هناك من ضمن عائلته أفراداً حملوا لقب بارون ، واشتركوا فى حرب « الوردتين » ، أو حاربوا بإخلاص تحت راية الملك « شارل » ، أو حاربوا فى إصرار وعناد مع «كروموك» وأن هذا هو الفرع الذى هاجر إلى ولاية « فرجينيا » عند تكوينها وقيامها ، ثم ذهبوا منها إلى «كاتوبا» الساحلية ، ثم نزحوا إلى الغرب حيث عاشوا فى قلعتها الحصينة .. ولكن العجيب فى الأمر أنه لما عرضت هذه المؤلفات على « زخريا جوينر » رد عليها بقول قاطع (أنا لا أدرى شخصياً من أين جاءت عائلتنا ، ولا أهتم بمعرفة ذلك ، أما الحقيقة الوحيدة الثابتة ، هى أننا موجودون هنا الآن) ، هذه العبارة لا تحوى شعوراً حقيقياً بالديمقراطية فحسب ، بل إنها تدوى بصوت الحق والحقيقة أيضًا . حقًّا إنهم كانوا هناك . وكانت ولاية « كاتوبا » ، ستبقى مجهولة للناس لولا وجودهم بها ، فهم جزء من « كاتوبا » الغربية ، ومن حياتها ، ومن لغتها ، ومن تاريخها ، وحتى من أرضها . وكان الاهتمام بتقصى أصل هذه الأسرة ، لم يعد ذات

موضوع .. إذ أننا من نسل آدم وحواء ، لولا ضرورة ملحة لمعرفة مؤسسى هذه العائلة ، إنه « وليم جوينر » والد « زخريا » الذى كان يتمتع وما زال يتمتع بشهرة عظيمة ملأت التلال والجبال .

لم يُعرف على وجه الدقة أصل « وليم جوينر » ولا من أين أتى ، ولكن المعروف على وجه التحقيق ، أنه وفد إلى مقاطعة « زبلون Zebulon » فى عام ۱۷۹۳ لأن الثورة قد منحته قطعة من الأرض تقع على الجزء الجنوبى من نهر صغير . وإذا كان « وليم جوينر » لم يكن أول المستوطنين ، فإنه كان قطعاً من بين أوائل من جاءوا إلى هذه المنطقة . وفى عام ۱۷۹۸ تزوج من ابنة أحد المستوطنين الذين وصلوا حديثاً إلى الجبال . كان اسمها « مرتا كريسمان Martha Creasman » ، وقد أنجب منها سبعة أفراد ، وقد توفيت فى أثناء ولادتها الأخيرة ، ثم تزوج من ثانية وأنجب منها أربعة عشر أو ستة عشر ، (لم يُعرف عددهم على وجه الدقة لتنوع مصائرهم) ، ومع ذلك فإن الحديث عنهم ، وما وقع لهم سيأتى فيما بعد . ولكن دعنا نتحدث فى إسهاب عن « وليم جوينر » نفسه :

ففى أوائل القرن الحالى لم يزل هناك بعض المسنين الذين يذكرون « وليم جوينر » ، (لأنه عاش فترة من الزمن طويلة) ، كما أن بعض الأشخاص الذين كانوا أطفالاً إبَّان عام ۱۸٤۰

لابد أنهم استمعوا إلى قصص الكبار التى كانت تُروى عنه ، فقد كان وقتئذ شخصية فذة ، وكانت القصص التى تروى عن قوته الجسمانية – وإن كان مبالغًا فيها – فإنها كانت مستندة قطعاً على شيء من الحقيقة .

عرف عنه أنه حاد الطبع ، كما عرف عنه أيضًا سرعة الغضب وخاصة فى شبابه ، يميل إلى القتال ، وتروى عنه قصة : عندما تشاجر مع حداد ضخم الجثة بسبب اختلافهما على حدوة حصان ، لقد ضربه الحداد على رأسه بقطعة من الحديد فخر وليم على الأرض غارقاً فى دمه ، ولكنه عاد محاولاً النهوض على قدميه ، ولكن الحداد قفز عليه ، وهنا ضربه وليم جويتر ضربة قوية كسرت أضلاع الحداد ، وتقوست داخل صدره مهشمة ، كما هو الحال عندما تفتح القوقعة . كما كان صيادًا حاذقاً وصبورًا ، يذكر أحد المسنين أنه كان يقتفى أثر الكلاب حتى ولاية «تنسى Tennessee » على بعد أربعة أيام وأربع ليال بدون أن يعبأ بالمسافة التى تفصله عن بيته .

وهناك قصة قتاله مع دب أغبر فلقد قيل إن هذا الدب هاجمه بحيث لم يستطع الفرار ، ولم يكن هناك مفر فى قتاله وبعد يومين من اختفائه خرجت مجموعة من الأفراد للبحث عنه فوجدوه ملقى على الأرض أقرب إلى الموت منه إلى الحياة وإلى

جواره جثة الدب ميتاً ، بعد أن قضم « وليم » أنفه وأذنيه وهشم جسده ، ولقد جاء وقت كان « وليم جوينر » يحمل على ظهره كمية من الجلود تكفى لصنع أحذية فصيلة من الجنود . فلقد روى عنه أيضاً أن أحد أخوات زوجته الأولى ، كان يمتلك حانوتاً يتجر فيه بشتى الأشياء والأصناف فى أحد الأماكن الريفية ، وكثيراً ما كان هذا التاجر يفخر بما يقتنى فى حظيرته من كلاب متوحشة كانت تقوم على حراسة حانوته ليلاً ، وكان أهالى المنطقة يعرفونها ويخشونها لضراوتها ، وفى أحد الأيام كان صاحب المتجر يتحدث عن كلابه ، فعرض أن يعطى أى شىء لأى شخص يستطيع إخضاع كلابه ، عرض أن يعطى أية كمية من الجلود يستطيع هذا الشخص أن يحملها فوق كتفيه ، فما كان من « وليم » الذى استمع إلى هذا العرض أن تقدم فى الحال قابلاً هذا التحدى ، وحاول أصحاب « وليم » أن يثنوه ، ولكنه كان قد سبقهم إلى الحظيرة وفتح بابها (وكما ورد فى القصة) ، أنه أحدث بأصابعه صوتاً مرة أو مرتين فجاءت الكلاب زاحفة على بطنها ، فالتقط « وليم » واحداً أو اثنين من أكبر الكلاب حجماً وحملها تحت دراعيه كما تحمل الخنازير الصغيرة ، وخرج فى ثبات من الحظيرة وسط إعجاب الناس ودهشة صاحب المتجر الذى أشار بيده إلى كومة من الجلود وطلب من وليم أن يأخذ منها ما يستطيع حمله

على كتفيه . ثم خرج « وليم » من المتجر حاملاً ما لا يقل عن ثمانين رطلاً من الجلود .

وهناك العديد من القصص التى تروى صفاته الممتازة : قوة عظيمة ، وشجاعة لا تعرف التردد ، أورثها من بعده لأولاده .

حضر « وليم جوينر » فى بادئ الأمر إلى « زبلون » وهو لا يملك سوى بندقيته وقطعة الأرض الممنوحة له كغيره ، ولكن ما لبث أن استطاع بعد عشرين عاماً بذكائه وحنكته أن يجمع ثروة تعتبر فى هذا الوقت ذات قيمة كبيرة . فقد كان يملك الطاحونة التى يأتى إليها الجيران لطحن محصولهم من القمح . كما زاد من أملاكه الزراعية فأصبحت مئات من الفدادين من أجود أراضى الوادى والتى تعرف الآن بوادى « جوينر » . لقدأنشأ أكبر مركز تجارى فى المنطقة وأكثرها ازدهاراً .

هكذا نشأت هذه العائلة حقاً ، إن « زخريا جوينر » كان يتحدث فى السنوات الأخيرة من حياته السياسية ، فى بعض الأحيان عن هذا الكوخ الصغير الذى ولد فيه . وفى الحقيقة أن هذا الكوخ الصغير لم يكن سوى هذا البيت الكبير الذى بناه والده . أصبح هذا البيت فى ذلك الوقت يتمتع بشهرة كبيرة ، حتى أن الجمعية التاريخية فى المقاطعة تحتفظ به الآن ، وتعنى بحديقته ، وقد وضعت اللافتات التى تشير إلى أن « مقر مولد

زخريا جوينز على بعد أربعة أميال ، وذلك بعد أن أصبح مزارًا للناس ، إنه من سوء الحظ لمحبي العواطف ولمحبي الحقائق التاريخية معاً أن تعلم أن « زخريا جوينز » لم يولد فى هذا المكان . لقد عاش بالفعل « وليم جوينز » سنوات عديدة هنا ، وأنه بنى منزله بنفسه وبمعاونة بعض أصدقائه من « الشيروكيه Cherokees » ولكن عند ولادة « زخريا » فإن أباه كانت له شهرته ، ومركزه الكبير ، ولكن لشدة احتياجاته الكثيرة من أجل أنَ يعول هذه الأسرة العديدة الأفراد التى من أجلها بنى هذا المسكن الكبير ، الذى مازال باقيًا حتى اليوم . أما الكوخ الصغير الذى كان يتحدث عنه ويقول : (إن الكوخ الذى ولدت فيه) فلم يكن سوى مبنى للمطبخ أيام طفولة « زخريا » ولكنه كان يتحدث عنه فى فصاحة مما جعلت هذا المبنى ذائع الصيت .

وتمر السنين تباعًا ويصبح « وليم جوينز » رجلاً له مركزه فى المجتمع . وأخذت زوجته (كما تفعل جميع زوجات العظماء الناجحين فى أعمالهم) تعمل جاهدة على تهذيب سلوكه وعاداته ، حتى يظهر فى المجتمع بالمظهر اللائق كرجل متمدين ، فقد رُوِى أنها حاولت مرارًا أن تقنعه بأن ينتعل حذاءً ، إذ كان يعمل فى الحقل عارى القدمين وكان يؤثر أن يظل كذلك .

غير أنها لم تنجح فى إقناعه فطلبت إليه أن يلبس الحذاء فقط

عندما يعود إلى المنزل ، ولكنها فشلت فى ذلك أيضًا ، وللمرة الثالثة لجأت إلى أسلوب الرجاء والتوسل ليلبس الحذاء أمام الزائرين إذا ما زارهم أحد ، ولكن التجربة فشلت أيضًا ، حتى أنها قالت فى يأس كبير : « فى الحق لا أدرى ما عساى أفعل معه فقد رجوته وتوسلت إليه فوعدنى بأن يحاول ، ولكن حين كان يزورنا بعض الناس ومنهم رجال الدين ، فإنه كان يدخل عليهم عارى القدمين يعلوهما الطين والقذارة التى يجلبها من الحقل » .

أما عن « بير جوينر Bear Joyner » الذى عرف بهذا الاسم بعد لقائه الشهير بالذئب الأشهبى والذى أخذت عنه التسمية فكان غالبًا ما يقول : « أظن أنى تزوجت من امرأتى ولكنى أعرف أنى قيدت نفسى مع حداد . ونصيحتى للشباب أن يختاروا زوجاتهم من سيدات يجدن الطبخ ورعاية الأطفال ، وليس ممن يطلبن منكم أن تنتعلوا حذاءً عند عودتكم للمنزل » . لقد كان هذا الرجل يمتاز بدعابته حتى قال عنه كل من عرفه : (إنه كان يذهب بدعابته إلى حد الإسفاف ، فلو أنه تلقى مبادئ العلم الأولية لما فعل هذا) . فلم يكن يستطيع القراءة والكتابة (حتى كتابة اسمه) حتى بلغ الأربعين من عمره ، ولكنه استطاع أن يتعلم القراءة والكتابة فى أواخر أيامه ، حقًّا هذا تقدم كبير وأصبح متذوقاً للقراءة وبقدر ما سمحت له إمكاناته فقد حصّل

معلوماتٍ مفيدة .

إن « بير جوينر » كابنه المشهور قد أحيطت حياته بكثير من القصص الخيالية ، وقد غذت هذه القصص أخلاق وطبيعة هذا الرجل ، وما ذَكَرْت هذه القصص التي تشتمل على بعض الحقائق إلا لكي أضيف طعماً وبعداً لشخصية هذا الإنسان . فكل هذه القصص كانت ترسم صورة الرجل ، كما أن الأساطير لا تزيف حقيقة الشخصية . فهي تحتوي على شيء من الحقيقة بصورة أو بأخرى . فهل يستطيع أحد أن ينكر أن « لنكولن Lincoln » كان يحب الملحة (النكتة) ، بل ويقولها ، وأنه كان يقطع الحديد . لقد قال عندما سئل عن سبب طول ساقيه « إنها طويلة حتى تصل إلى الأرض » وأنه جمع روث الخنازير مرة فطردته زوجته يومها من البيت فهل هذه خرافة ؟ لقد كان يحب النساء والطعام ، وكان يريد أن يكون محامياً « له صوت رنان صارخ » وإذن لماذا تسمى هذه الأشياء أساطير ؟ إن الأسطورة تقوم على حقيقة ، ولكن أصابها بعض التحريف ، وحملها لنا الزمن عبر سنينه الطويلة ، وعبرت إلينا الطرق الوعرة والكثيرة التشقق ، كما حملها إلينا صرير رياح الشتاء من خلال أشجار الصنوبر .

لقد كان خبراً هامًّا أن تعرف أن « بير جوينر » قد ثنى مرة

قضيباً من الحديد . ولكن الذى كان أكثر أهمية أن تعرف أنه علم نفسه القراءة والكتابة بنفسه .

قد يأتى يوم فى حياة الإنسان عندما يستغنى عن كل أدوات الطباعة المعروفة ، وكتابة الكتب وقراءتها ، وكل هده الآلات المختلفة التى وصلت إلينا حتى الآن من أيام « جونبرج » لتصبح قديمة جدًا مثل الديناصور . وذلك عند استعمال الصوتيات النفسية والموجات المؤثرة على العواطف عن طريق الإيحاء وغيرها من الاختراعات المختلفة . التى لا أدرى عنها شيئاً .

ولكن أيام « وليم جوينر » كان الشىء يعرف ثم يذاع عن طريق النقل (الحديث) وكانت أسرع وسيلة للاتصالات . ولكن لا يمكن أن تغفل أن «وليم جوينر» كان أميًا – حتى سن الأربعين – لا يقرأ ولا يكتب . ولكنه تعلم بعد ذلك القراءة والكتابة ولكن لماذا ؟ لا نعرف ولا نستطيع التخمين .

لقد ذهب بعض الناس إلى الهند وتحدوا أخطار البحار الهائلة والبعيدة فى سفنهم البسيطة التركيب . كذلك كان الوضع فى بقية الأحداث الأخرى ، ومنها علاقة عائلة جوينر فى العصور الوسطى . بحرب الوردتين أو الملك شارل ، وإذاً فليبحثها غيرنا . فلكل حدث أهميته ومكانته ، أما موضوعنا فهو «كاتوبا القديمة » مع « بير جوينر » فى التلال المحيطة بالإقليم ، ومهما كان

الأمر غامضاً من ناحية أصله ومن أى بذرة نشأ ، فإن الرجل كان « هناك » ، وأنه لم يكتف بثنى القضيب الحديدى فحسب ، بل علم نفسه القراءة والكتابة .

ومهما اختلفت الحقائق والعلاقات حول أفراد هذه الأسرة فإن الحقيقة الواقعة والقريبة إلى الأذهان ، بل والثابتة ، أنهم جميعاً احترموا العلم والتعليم ، ولكن من أين جاءهم هذا الاحترام .

بعد مرور قرن من الزمان ، أى منذ أيام « بير جوينر » العجوز جاء آلاف ممن يحملون اسمه ، وسكنوا هذه التلال . فمنهم من أصبح جبليًّا واستكان إلى الفقر والجهل ، ومنهم من كان نصف أمى تلقى مبادئ التعليم فقط ، ولكن كان آخرون منهم احتلوا مراكز مرموقة فى دنيا التجارة ، ومنهم من أصبح محامياً ، أو طبيبًا . أو رجل أعمال أو من أصبح قسيسًا هنا أو هناك ، ومنهم من كان راديكاليًّا أو من كان ملحداً ، (لأنه جادل فى قداسة المسيح ، أو فى وجود الآخرة) . وكان من بين الراديكاليين (وهم من تحدوا التقاليد السائدة والقانون ونظام الملكية) ، كما دخل أحدهم انتخابات الكونجرس ويدعى « يوجين دب Eugene Debs » ولم يحصل إلا على ثمانية أصوات فقط ، ولقد قيل وقتئذ إن أولاده وأخواته قد صوتوا ضده .

وتشتهر عائلة « جوينر » حتى اليوم فى الأقاليم الجبلية بأنها عائلة غريبة الأطوار وشاذة . فإذا ظهر منهم من كان ملحداً ، أو راديكاليًّا ، أو اشتراكيًّا ، فلا يدعو هذا إلى العجب ، بل يتقبله الناس ، ذلك لأنه من عائلة « جوينر » ولكن لماذا ؟ !

نعم لقد تفاعلت هذه الصفات الشاذة مع بعضها البعض لمائة عام أو يزيد ، وقد اعتادهم الناس وألفوهم وتعايشوا معهم وتقبلوهم باعتبار أنهم نوع متميز وشاذ ، لأنهم شديدو الرغبة فى المعرفة ، وفى التساؤل المستمر ، وفى الجدل والحوار ، ولهم ذكاء متقد (وهو ما يفتقده أغلب سكان المنطقة) ، وهنا يكمن السر ، السر الوحيد .

لقد اشتهر أفراد عائلة جوينر بالفردية ، كبقية سكان الجبال الآخرين ، فهم جميعًا فرديون ، وإن كانت تحكمهم تقاليدهم وقوانينهم التى وضعوها وارتضوها لأنفسهم ، ليصرفوا أمورهم من خلال إطار هذه التقاليد . لقد كانوا منطوين ، لا يألفون الغريب ، ويشكون فيه ، ثم يرتابون فى العالم الخارجى من حولهم ، كان أغلبهم أمى وسط عالم أصبح الكتاب فيه ذا أهمية بالغة . وهنا تختلف عائلة جوينر عن جيرانها ، وكانت نشأة هذه العائلة أساس هذا الاختلاف عندما سعى « بيرجوينر » فى إصرار عجيب ليصبح متعلماً . فلقد حاول الكثيرون من الباحثين فى

أصل المهاجرين بدون جدوى أن يُرجعوا ذكاء « زخريا » إلى لعصور الوسطى ، فلم يُعرف على وجه الدقة من أين جاء أبوه ، وليس فى ذلك أهمية كبرى ، إذ أن الإجابة تتضح فى أن أباه كان يتمى إلى الجبليين ، غير أنه كان رجلاً قد تعلم القراءة وهذا لب السر .

الفصل الثالث

التصدع الكبير

فكما يقول «كارليل» إن تاريخ العالم مسجل فى أعمال عظمائه من الرجال فإن شجاعة الناس تتحقق عند اختيارهم لأبطالهم» ، وليس هنا أدل على ذلك من سيرة «زخريا جوينر» ، فقد كان مركزه من الناحية التاريخية مدعماً وقوياً ، حقاً إنه لم يتطلع إلى تحقيق شهرة خارج حدود ولايته ومع ذلك فإن سمعته لم تصل إلى ما وصلت إليه شهرة رجال آخرين أمثال «وبستر Webster» ، أو «كالهون Calhoun» ، ولكن سوف يذكره المؤرخون كواحد من أقوى الخطباء المفوهين فى مجلس الشيوخ الأمريكى ، وما زالت محاضر جلسات مجلس الشيوخ تحتفظ بكلماته وخطبه القوية فى أثناء المناقشات الحادة

التى جرت أيام عضويته فى المجلس .

أما شجاعته الفائقة وقدرته على إدارة دفة الأمور فى ولايته فقد تجلت فى وضوح فى أثناء الحرب الأهلية ، ففى الأوقات العصيبة المليئة بالأزمات ، كان لا يتردد أو يلين أمام الصخب الهستيرى للرأى العام ، أو لأى قوة أخرى . فلقد رأيناه لا يستجيب فى عزم وحزم لطلب « جيفرسون ديفز Jefferson Davis » عندما طلب إليه أن يبعث بسبعين ألف كسوة عسكرية كانت فى الولاية ، وقال فى رفضه : (إنه سيعطى هذه المهمات لسكان الولاية عند إعادة توطينهم) ، لقد فعل هذا كله فى مواجهة معارضيه وسخطهم الشديد ، ولكنه لم يزحزح عن موقفه ، وفى الأيام السوداء زمن الاحتلال العسكرى فإنه لم يتوقف مطلقاً عن تأدية الخدمات الجليلة لولايته ، حتى انتهت حياته فى عام ١٨٩٣ ، أيام رئاسة كليفلاند Cleveland الثانية . فقد كانت حياته كلها نشاطاً وأعمالاً مجيدة لا تُنسى ، خاصة مواقفه إبَّان فترة عضويته فى مجلس الشيوخ ، ولئن كانت أعماله هذه تستطيع أن توطد له مكانة مرموقة فى التاريخ ، فإن سكان ولايته قد أحلوه فى قلوبهم منزلة عليا ، فاعتبروه ملكاً عليهم ، وجزءًا من تراثهم . فهو حاضر فى كل قلب من قلوبهم ، حتى أنهم لم يستطيعوا أن يتخيلوا أن

يشاركهم فى امتلاكه آخرون خارج الولاية ، ذلك لأنه كان باختصار بطلهم وحدهم ، وأسطورتهم التى قامت ونشأت فى ولايتهم ، وحتى اليوم فما زالت القصص والأساطير تروى عنه ، وغير مهم ألبتة ما جاء فى بعض القصص من أحداث لم تقع له أو منه ، وكانت من تصوير خيال الرواة ، بل المهم أن سكان هذه الولاية يصرون على اعتقادهم فى أن «زخريا جوينز» كان يستطيع القيام بهذه الأحداث فى أى زمان ، وفى أى مكان. وعند دراسة سيرة هذا الرجل العظيم نجد أن أكثر من ثمانمائة رواية أو حادثة أو ملحة (نكتة) قد قيلت عنه أو نسبت إليه ، من بينها ستمائة على الأقل ، تستند فى صحتها إلى حقيقة ما بصورة أو بأخرى. فإذا قال بعض المتشككين «كيف ؟ ومتى ؟» فإن ٣٠٠ منها تستطيع أن تقوم على حقائق مؤكدة لا جدال فيها زمانية كانت أو مكانية.

ومن «مُلَحِه» أنه قال يوماً رداً على سؤال عن عدد أفراد أسرته : (يا إلهى إنى لا أعرف عددهم ، ولكن أستطيع القول بأنك إذا ما رميت حجراً فى مدينة «زبلون Zebulon» فإنك لا محالة ستصيب واحداً منهم) ، وهناك العديد من قفشاته اللاذعة والخارجة أيضاً إذا ما أردنا أن نتعمق فى البحث عن هذا الرجل ، ونسرد له بعضاً من الكلمات الجادة التى تتخللها الفكاهة

اللاذعة . من ذلك خطبة فى مجلس الشيوخ عن إقرار مبالغ باهظة لعمل قنطرة لعبور مجرى مائى صغير . فقال سيدى الرئيس : لقد طلب إلينا العضو المحترم أن نوافق على رَصْد مائتى ألف من الدولارات لبناء هذه القنطرة ، وهذه القنطرة فى أراضى العضو المحترم . ولقد أسعدنى الحظ برؤية هذا المجرى المائى الذى يريد العضو أن نبنى له قنطرة ليعبر عليها ، هذا المجرى قد عبر نصفه سيراً على الأقدام . فلا داعى للقنطرة . فصاح وكيل المجلس : إن هذا العضو خرج عن النظام . فرد « زخرياً جوينر » قائلا : « هو كما قال ومعه الحق ، فلو أنى تبعت النظام لعبرت المجرى كله على قدمى بدلا من نصفه » .

وآخر قصة قالها أيام مرضه الأخير ، (وكان مثله كمثل الملك شارل عندما حضره الموت) فقد أفاق من حالة إغماء ، وكان الوقت بعد الظهر فأحس فرقعة عجلات وضوضاء فقام فى إعياء شديد إلى نافذة غرفته ، وأطل منها ليقف على الخبر ، فرأى أخاه «روفـــوس Rufus » وهو يسرع الخطى إلى المنزل ، وهنا لم تفارق « زخريا » الدعابة فى هذه الآونة إذ قال « يا إلهى لقد حانت ساعتى الآن ذلك لأن أخى روفوس قد حضر . وفى ملحة أخرى قيل إنه عقب الانتهاء من إلقاء خطاب سياسى هام فى جمع كبير من الناس ، أشار إلى واحد منهم وصاح قائلا : أيها

الصديق ألم نتقابل معًا من قبل فوجهك مألوف لى ؟ فرد عليه الشخص قائلاً : نعم لقد رأيتنى فعلاً فأنا أخوك رقم ٩ من زوجة أبيك الثانية وأنت الابن الرابع من زوجته الأولى . وفى اختصار فأنا وأنت أخوان غير شقيقين .

قد توحى هذه القصة وغيرها من القصص المشابهة إلى الاعتقاد بأن روابط الأخوة والدم بين أفراد هذه الأسرة ، كانت ضعيفة ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك فلقد كانت هذه الظاهرة سائدة وعامة فى « كاتوبا » حتى قيل : لا يجتمع أفراد عائلةٍ ما إلا فى حفل زواج أو مأتم ، لقد دلت الأحداث التى مرت على أن عائلة « جوينر » كانت تتمتع بأوثق الروابط بالرغم من هذا المظهر الانفصالى والذى دعا إليه كثرة عدد الأبناء ، وأبناء العمومة ، فكان منهم من سافر لطلب الرزق ، ومنهم من بقى فى « زبلون » ، ومنهم من نجح فى حياته وأثرى ، ومنهم من عاش فى فقر غير أنهم جميعًا كانوا يشتركون فى صفات أخلاقية متشابهة ، أو واحدة . هذه الصفات جعلت منهم قبيلة واحدة على الرغم من المسافات التى باعدت من بعض أفرادها .

كانت حالة والدهم «بير جوينر Bear Joyner» فى بادئ الأمر لا تساعد على منح أولاده حياة سهلة إذ كان عددهم لا يقل عن العشرين . ماتت الزوجة الأولى ، واضطر

الأب للزواج مرة ثانية (لحفظ النظام فى المنزل) ، ولكن كانت هذه الزيجة سببًا فى ظهور حالة من الانفصال بين الزوجة والأولاد الذين لم يعودوا صِغاراً . ذلك أن الأولاد قد تربوا تربية مختلفة ، وأنهم مختلفون تماماً عن أمهم الجديدة ، وأحسوا فى دخيلتهم بأنهم أفضل وأكثر عراقة منها ، حتى أن هذا الشعور لازمهم وأصابهم بالغرور . وسبب هذا الاعتقاد يرجع إلى أن أمهم « مارتا كريسمان Martha Creasman » كانت امرأة فريدة ، وكانت عائلة كريسمان من العائلات الطيبة حتى أن آل « جويتر » كانوا يفخرون بأجدادهم من آل كريسمان . أما عن « مارتا » فلم يعرف عنها الكثير سوى أنها كانت أمًّا طيبة ونشيطة ، وزوجة طيبة أيضاً ومتدينة ، وتنتمى فى الأصل إلى طبقة الدهماء ، فظلت هذه الصفة فى الذرية ولم يفقدوها .

أما عن الزوجة الثانية فكانت امرأة شديدة التمسك بالدين ، كما كانت تحس بابتعاد أولاد زوجها عنها ، غير أنها لم تشكُ من معاملتهم لها ، ذلك لأن الأدب والاحترام ، هو ديدنهم فى معاملتهم لها . لقد كانوا بعيدين عن نطاق إشرافها ، فقد تكونت شخصياتهم من قبل وقد ورثوا عن أبيهم الشىء الكثير من أخلاقه وتحرره وثقته بنفسه وبقوته واستقلاله ، وحتى الأب فكان من جانبه يشعر بأنه مدين للزوجة الثانية ولعائلتها المعروفة ، لأنه يعتقد

أنه سوف يحقق نجاحًا كبيرًا بزواجه منها . وعن تدينها ، وشدة تمسكها بالدين ، فيقال إنه قابلها فى حفل دينى ، لا شك مطلقاً فى أنها كانت تعمل كثيرًا ، وفى إخلاص وأمانة . فقد كانت امرأة صبور وقوية وحمول ، فهى أم رءوم . هكذا كان يقدمها جوينز العجوز لهذه العائلة المتعددة الأفراد .

أما عن أولاد «بير جوينز» من زوجته الأولى وهم : زخريا ، وهاتى ، وروبرت ، وتيودور ، ثم روف (أما مارتا وجورج وهما الاسمان الباقيان لاستكمال العدد سبعة ، فقد ماتا فى طفولتهما) ، ويظهر منذ البداية أنهم كانوا خارج نطاق مراقبة زوجة أبيهم ، كما سبق أن أشرنا .

إن زخريا (على وجه الخصوص) ، كان يتحدث عنها فى السنوات الأخيرة ويتحدث عن صفاتها الطيبة ولكن بأسلوبه الدعابى ، وبدلك كان يحلل شخصيتها ، فقد كان تطيرها وتعصبها الدينى ، وطريقة تفكيرها ، مثار دهشته ، فقد كانت فى نظره مجموعة متناقضات ، فهى إلى حدٍ كبير تمثل المزيج المتضارب من الأمراض الأمريكية – فمثلاً – تعتقد أنه من الخطأ أن تأخد الحياة بأعصاب هادئة باردة ، وليس من الخطأ فى نظرها أن تتناول مشروباً . إنها كانت تحمى أولادها بحماس ضد الرذيلة وحياة اللامبالاة ، وأنها تتحدث عن مرتكبى الجرائم

الأخلاقية ، ولا تسمح لأذنيها أن تستمعا إلى جريمة قتل ، ذلك لأن الكتاب المقدس ذكر قابيل وهابيل ، ولأنها تعلمت أن القتل جريمة شنعاء ، ولكنها لا تغضب حين تستمع إلى أن رجلاً عاشر امرأة ليست زوجته ، وذات مرة ذكرها « زخريا » بأن شقيقها – وهي تعتبره من المسيحيين المخلصين – قتل ثلاثة رجال أيام شبابه ، ومع ذلك ، فهي تدافع عن القتلة . تقول « لزخريا » في غضب : لا تنقب في الماضي هكذا ، فقد كان « ريس Reese » له أخطاؤه في صباه ككل إنسان ، وأنا أعترف أنه كان في شبابه حاد الطبع ، ولكن لا تنسى أنه صار مسيحياً مخلصاً ، ذلك لأنه لم يقرب الخمر أو يدخن ، كما أنه لم يستعمل لغة نابية ، ولم يكن زير نساء مثل أناس أنا أعرفهم ، وكانت تعني شخصاً معيناً كان حاضراً ، فرمقها هذا الشخص بدوره وقال : إنك تعتبرين شقيقك هذا رجل أخلاق برغم فعلته ..

وهكذا كان سيل أحاديث « زخريا » لا ينتهي برغم أنه لم يقصد أن يكون قاسياً معها ، ولكنه كان يقصد كما قالت هي يريد أن يعذبها دائماً بنبش ما في جعبتها من أخلاقيات ، ليكشف عما تخفيه من أسرار ، لقد تحدث عن حاسة شمها الطبيعية ، والتي كانت موضع غرابة ، والتي ورثها عنها جميع

أبنائها . فلقد أخبرت يوماً ما أنها شمت رائحة احتراق أوراق الشجر على مبعدة أميال قبل أن يعرف غيرها أن هناك حريقاً فى الغابة . ولقد روى عنها مرة فقال : حسناً إنها تستطيع أن تشم رائحة الحريق على بعد أكثر من هذا ، يا للجحيم ، فإذا شربت خمرًا فى ليبياهل ، فإنها تستطيع أن تشم رائحتها فى تنفسى قبل أن أقترب من حدود المقاطعة .

ومرة أخرى فى مناسبة معينة تحدثت إلى « زخريا » عندما عاد إلى المنزل وقالت له : « زخريا جوينر » لقد عدت لشرب هذا النوع الردىء من الخمر مرة أخرى ، إنى أشم رائحته فى تنفسك فردّ عليها قائلا : والآن يا أمى ليس هناك نوع ردىء ، وإنما يوجد نوع جيد ، ثم أضاف وهناك نوع أكثر جودة ، ولكن لا يوجد ما هو ردىء .

وحدث مرة أن عاد « بيرجوينر » من ليبياهل » ، وأعلن هذا الخبر : لقد ذهب « تادبورتين Thad Burton بعد أن رجع إلى أفعاله القديمة . فسأله « زخريا » : ماذا فعل يا أبى ؟ فأجابه أبوه : لقد ذهب بعد أن قتل رجلاً . وهنا صاح « زخريا » بعد أن نظر فى خبث إلى زوجة أبيه ، وقال : لقد خشيت أن تحدثنى بأنه فعل سيئاً حقًّا ، كأن تقول إنه ضُبط وهو مخمور . . . !

ولم يأل « بير جوينر » جهداً فى أن يندد بزوجته فى هذا المضمار

(مضمار المعاكسة) تمامًا مثل أولاده والأمثلة كثيرة فى هذا ، منها أنه ركب مرة معها من « زبلون » ليرى ما يفعله أولاده بالمخزن فى ليبياهل ، وبعد أن تفقد العمل فى المخزن ورأى « زخريا » يقوم بالعمل ، دار بينهما الحديث عن التعبد والتدين ، فقال : إنكم يا أولادى تعملون مترسمين حياة المسيح تماماً كما تفعل أمكم ، وكما تعلمكم أليس كذلك ؟ فأجابه « زخريا » : تمامًا يا سيدى . فعاد الأب يسأل : فهل قمتم بالطقوس الغنائية هذا الصباح ؟

فقال « زخريا » : تماماً يا سيدى . فسأل الأب : وهل باركتم اللبن بالماء المقدس ؟

فقال « زخريا » : تمامًا يا سيدى . فسأل الأب هل خلطتم السكر بالرمل المقدس ؟ تماماً يا أبى فسأل مرة أخرى وهل : حددتم المعايير؟ تماماً يا أبى .

قال الأب إذاً : فأولى لكم أن تنادوا » تد Ted ، وبوب Bob ، وتخطراهما بأن أمهما هنا ولسوف نؤدى جميعًا الصلاة .

وأخيراً فعلينا بدراسة حالة « هاريت Harriet » ، أو الآنسة « هاتى Hattie » فى سنواتها الأخيرة ، ولأنها ظلت عانساً ، فقد زادت من حزن ومتاعب زوجة أبيها . لقد كانت « هاتى » أقرب الأولاد إلى قلب أبيها . فكانت الأثيرة عنده وتساءل الناس عن سبب ذلك ؟ ترى ألأنها بقيت عانسًا طوال حياتها ؟ أم لأنها

كانت قريبة الشبه من أبيها وسرعة بديهته واستقلالها فى الرأى وذكائها ؟ نعم فلقد عرفت أنها صاحبة الحظوة عند أبيها . فهل كان ذلك تعويضاً لها لأنها كانت ابنة غير شرعية ! ! وعند هذه النقطة لم يجرؤ أحد أن يسأله (الأب) عن ولادتها ؟ ولكنها نشأت بين أفراد الأسرة كواحدة منهم وكأخت لهم . ولقد قيل إن « وليم جوينر William Joyner » رحل فى يوم من الأيام إلى الجنوب لعدة أسابيع وحين عاد إلى المنزل كان فى صحبته طفلة تبلغ من العمر وقتئذ ثمانى سنوات ، وكانت زوجته الأولى على قيد الحياة ، وتروى القصة أنه حين دخل البيت كانت الأسرة تتناول طعام العشاء ، فأجلس الطفلة بين أفراد الأسرة وقال : « هذه أختكم ، من الآن أصبحت واحدة منكم ، فعاملوها على هذا الأساس » وكان هذا كل ما فى القصة . فعاملتها الزوجة بكل حنان ورفق ، ثم جاءت الزوجة الثانية لترعى شئون البنت على قدم المساواة كبقية أفراد الأسرة .

غريب جدًّا أمر تحديد وتعريف التاريخ وأزمنته .. والعالم لم ينمُ بمختلف بلاده فى وقت واحد . إن قُطَّاع الطريق الذين جعلوا « جونسون Johnson » يحمل عصاه على كتفه ليلاً ، ويخرج من لندن وحيداً فى القرن الثامن عشر ، كانوا من أنشط وأفعل الناس الذين عملوا فى الخارج فى السنوات الحديثة على

أرض بلادنا هذه ، وأنه من أجل حياة الإنسانية التى تحدث عنها الكتاب والناشرون والمؤلفون ، وعن مدى الراحة التى تعم أرضنا الآن ، برغم أنها تحققت على يد قتلة ، أو عن طريق العنف ، أو عن طريق الموت المفاجئ من أى نوع كان ، ربما كانت عظيمة فى عظمة أمريكا فى الوقت الحاضر ، كما كانت فى إنجلترا أيام الملكة « اليزابيث » ولو أن مظهرنا الآن جاء عن طريق إراقة الكثير من الدم تماماً كما حدث فى العهدين .

أما بالنسبة لرجلنا « ديك هوتنجتن Dick Whittingtons » ، أو بالنسبة لأولادنا فى الريف الذين انتقلوا إلى المدينة ، فإننا أيضاً نقلد الأوربيين الأوائل ، ولو أننا تأخرنا فى ذلك قليلاً .

يقول التاريخ إن عظماء الرجال الذين نجحوا فى صنع شهرتهم الواسعة ، لم يكن لتأتيهم هذه الشهرة لو لم ينتقلوا من الريف إلى المدن . والغريب فى الأمر أن أطفالنا لم يعرفوا بالقدر الكافى أن هؤلاء العظماء لم يصبحوا عظماء إلا بعد أن هجروا الريف إلى المدن ، وأقاموا بها بالرغم من نشأتهم الأولى فى الريف . إن تاريخ أمريكا كله مكتوب تقريباً عن سيرة رجال وفدوا إلى المدينة .

بدأ « زخريا جوينر » حياته السياسية فى أواخر سنينه فى قرية « زبلون » ، ولكنه لم يلمع وتعم شهرته إلا بعد أن نزح إلى

مدينــة «ليبياهل Libya Hill » فقــد كانت نقطــة التحول الكبيرة فى حياته السياسية ، فكانت بمثابة الباب الأول الذى ولجه ليرى المجتمع الواسع الكبير للحياة العامة . والتى دامت خمسين عاماً . وقد انطبقت تجربته الناجحة هذه على ثلاثة من إخوته جاءوا معه إلى المدينة ، وتاريخ هذه الأسرة يتلخص فى جملة واحدة (سيرة من ذهب منهم إلى المدينة ، وسيرة من يبقى منهم فى الريف) ، ومع مرور الزمن انقسمت هذه الأسرة إلى قسمين كبيرين : أهـل المدن وأهل الريف ، وأصبح الفرق بينهما واضحاً حتى فترت وضعفت الصلة بينهما ، وازدادت فتوراً وضعفاً على مر الأيام ، بالرغم من أن المسافة التى تفصلهما لا تزيد على خمسين كيلو متراً . وبحلول عام ١٩٠٠ أى بعد مضى قرن من الزمان على السنة التى جاء فيها « وليم جويز » إلى البرارى حاملاً بندقيته ليبحث عن قطعة الأرض التى منحت له . وبالقطع سيلحظ أى مؤرخ مدى التغيير الذى طرأ على الفرع الذى سكن المدينة من عائلته . أما الفرع الذى بقى فى قرية « زبلون » فلم يصبه أى تغيير يذكر . لقد طرأ بعض التغيير على قرية « زبلون » فقد جردت البرارى من أشجارها ، كما تعرت سفوح الجبال المحيطة بها وأجدبت من الزراعة وأمكن رؤية فوهات المناجم المهجورة على مسافة قريبة .

وخلاصة القول أن كل خيراتها قد نُهبت وانتُزعت بدون رحمة . أما السكان وأما الناس فقد – استمرو كما هم – وكما كانوا فى الماضى «يتغنون بنفس الأغنيات» كما يقول الفلاسفة ويعيشون نفس الحياة كما كان يعيش أجدادهم القدماء من مائة عام ، فقد قيل إنه لم يبق من الماضى سوى الأرض ، ولكن هل كان ذلك صحيحاً ؟! لا . . أبدًا فالأرض قد تغيرت وتعرت ، ولكنه الإنسان الذى بقى كما هو لم يطرأ عليه أى تغيير .

الفصل الرابع

كيف ذهبت عائلة جوينر إلى المدينة

لقد عرف « بير جوينر » بأنه « رجل ينظر إلى الأمام » كتعبير اليوم . فلم يكد يدخل قرية « زبلون » وأقام بها حتى شعر فى قرارة نفسه بالأسف لمجيئه إليها ، لقد كان دائم القول ويصفها « بأنها متأخرة جداً » .

هكذا كانت روح بناة الإمبراطوريات . فلم يكن الرجل (على حد تعبيره) ممن يزحف إلى جحر ثم يغلقه عليه ، فما دام هناك باب للدخول ، فلابد أن يكون هناك باب للخروج فلم يمر عليه وقت طويل فى « زبلون » حتى أخذ يتطلع إلى الخروج منها . لقد امتلأت حياته فى العشرين عامًا التالية بالرحلات الاستكشافية ، وبالرغم من مضى هذا الرقم من السنين ، إلا أنه

كان دائب البحث والتنقيب دون أن يستقر أو يقنع . ففى فترة شبابه كان جيرانه ينظرون إليه فى ريبة ، خاصة الكبار منهم والمحافظين ، لقد أجمع الكل على تقدير واحترام صفاته من ذكاء ، ونشاط ، ومهارة ، وقوة بدن ، ولكنهم مع ذلك كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم بأن هذه الصفات العظيمة هذه لن تعطيه فرصة للاستقرار حتى تمتد جذورها وتتوطد دعائمها .

فى مستهل حياته كان رجلا عاديًّا حياته عادية كأى رجل آخر يقطع الأشجار ويقوم بالصيد ، كان يصطاد الأسماك ويقتنص الحيوان وله قطعة أرض يزرع فيها ما يحتاج إليه ، وكانت البرارى من حوله غنية بالحيوان (كالذئب والغزال) ، وظل يعيش هذه المعيشة حتى بعد زواجه الأول ، كما ظل يعيش هكذا فى كوخه الخشبى ناحية الجنوب من نهر « تو Toe » .

ولكن فى السنين الأولى (كما تحدث عنه الناس مؤخرًا) كان يستيقظ من نومه ويخرج مسرعًا . كان يخرج للصيد فى رحلات طويلة ، أو ليذهب فى رحلات غامضة فى المناطق التى تحيط بالمقاطعة ، وكثيرًا ما كانت تقوده هذه الرحلات إلى « تنيسى Tennessee » ، أو إلى « كارولينا الجنوبية South Carolina » . أو يتجه شرقًا حتى يعبر النهر الأزرق Blue Ridge إلى « بيدمونت Piedmont » ، أو يتجه إلى

الشمال إلى « فرجينيا Virginia » ، وكان قيامه بهذه الرحلات يقتضيه غيابًا يستمر عدة أيام ، بل أسابيع فى بعض الأحيان تاركاً زوجته وحيدة . وكان الناس يهزون رءوسهم فى عجب وأسف ، فنى حين يبقى الناس فى دورهم بالقرية كان « بيرجوينز » يقوم بزيارة أراض جديدة ، كان الجميع يعترفون بأن « بيرجوينز » يعرف عن هذه البلاد أكثر من أى شخص آخر ، فقد ألم بخريطة هذه الناحية ولمسافة لا تقل عن مائة ميل ، حتى أنه لا يوجد نهر ، أو وادٍ ، أو أخدود ، فى هذه البرارى الشاسعة دون أن يكون قد مر به وتعرف عليه . وشيئاً فشيئاً ، زادت معلوماته كانت تتزايد عما حوله حتى وصل إلى (Libya Hill) ، وكانت عبارة عن معسكر كبير أقيم على التلال ، وعلى أرض كانت تقع فيما يسمى بالأخدود الأزرق ، لقد أنشئ هذا المعسكر فوق هضبة مرتفعة يقع على أطرافها الشرقية سلسلة من التلال المنخفضة ، أما من ناحية الغرب فكانت مفتوحة تطل على سلسلة من الجبال تبعد مسافة أربعين ميلاً ، وعندما رأى « جوينز » هذا المنظر قال ما قاله « برجهام يونج Brigham Young » عن مكان آخر مؤخرًا (هذا هو المكان المناسب) ، نعم .. لقد كانت كل المنطقة الجبلية إلى الغرب هى « المكان » الموعود والمرتقب فعندها التقت التلال ،

وبها نهر أكبر من أى نهر فى زبلون يخترق ممرات التلال متدفقًا نحو الغرب ، وعلى طول الوادى الضيق يوجد جدول يجرى متعرجًا نحو الشرق ، إنه هو المكان لا تخرج منه الدنيا فحسب ، بل وتدخل إليه .

رأى « بير جوينر » هذا كله ، فصار له نهاية الرحلة ، وهنا بدأت قصة انسحابه من « زبلون » والوصول إلى المكان الممتاز .. وعندما ذهب إلى « ليبياهل » اصطحب معه أبناءه الأربعة من زوجته الأولى تاركاً خلفه بقيتهم . لقد جاءت أخيرًا عائلة « جوينر » المدينة وهكذا بدأ أعظم جزء من تاريخ هده الأسرة

فنى عام ١٨٢٨ امتلك « بيرجوينر» مخزناً فى ليبياهل ، وكان أكبر مخزن فى القطاع كله فصار مستقبله مؤمناً . وبمرور الوقت . وقبل آخر أيامه كان يمتلك مساحات من الأرض بطريق الشراء قسمها بين أبنائه الأربعة الذين صاحبوه وكانوا ورثته .

حقًّا . فإلى ستين عاماً فقط حين كبرت ليبياهل وبلغ سكانها ألفىْ نسمة كان الورثة من أبناء « جوينر» يملكون مساحات شاسعة ، وحتى فى هذا القرن الحالى فإن الأطفال يتناقلون فى أسًى عن ذويهم الذين سبقوهم ، كانوا يتناقلون كيف أن « روف جوينر » عرض على مرة أن يبيعنى هدا المبنى الكبير الذى يمتد من القصر الملكى (الموجود الآن) حتى ركن شارع مصلحة البريد

نظير مبلغ ٢٠٠ دولار . وقد كنت غاية فى العته ، أى كنت معتوهاً ، لأنى لم أقبل هذه الصفقة والذى لو قبلتها لصرت من أغنياء العالم الآن ، إذ لا يمكنك أن تشتريها الآن بأقل من مليون دولار . ولا أدرى كيف ضحكت منه فى هذه الآونة عند عرض ذلك ، إنها لم تكن سوى حقل قديم لتربية الخنازير ، والآن يقوم مكانه الشارع الرئيسى فى البلدة ، وقد قلت له رداً على عرضه (أنا أدفع مائتى دولار لهذا الجحر) ، إننى أعتقِدُ فى تلك اللحظة أن « روف جوينر » أكبر مجنون فى العالم ، ولكنه هو الذى اعتبرنى كذلك ، إذ رد قائلاً : (حسناً لسوف تنتظر وسترى ما سيكون من أمر هذه القطعة) ، وفعلا قد انتظرت ورأيت ...... ، وعندما اندلعت الحرب الأهلية كانت عائلة « جوينر » تعتبر من العائلات الثرية ، وقد كانت « العائلة الكبيرة » فى كل المقاطعة ، وقبل أن تصل إلى هذه المكانة المرموقة كانت العائلة قد اشتهرت وعرفت بين الناس حتى وصلت شهرتها إلى الجبال الشرقية .

أما « زخريا جوينر » فعندما كان حاكماً ، ثم عضواً فى مجلس الشيوخ ، فقد كان يردد دائماً : أنه تربى على حِساء الذرة والماء ، كما كان يذكر حين يلقى خطاباً على جموع الناس بأنه تربى فى الفقر وعاش فيه فترة من الزمن ، وهو فى ذلك كبقية الساسة

عندما يتكلمون عن تاريخ حياتهم.

ترى أكانت حياته الأولى على هذا النحو ؟ ! لقد كانت هذه الصورة غير دقيقة ، فقد نشأ « زخريا » فى ظروف أحسن بكثير من غيره ، فحين صار يافعًا ، كان أبوه يعتبر من الأغنياء ، ويعتبر دائمًا كأحد قادة الناس ، أما قصة حياته الفقيرة فلم تكن إلا جزءًا من الأسطورة التى نسجها حول نفسه ، أسطورة قاطع الأخشاب الذى تربى وسط الفقر والمتاعب والوحدة ، وإنما نشأ على قيم البيت الجاد المحافظ حتى جاءته الفرصة فخرج من البرارى ليقود شعبه إلى الأرض الموعودة ، فهو « موسى » قومه ، واستكمالا لهذه الأسطورة كان يقول عن نفسه : (إن عدد الأيام التى قضيتها فى المدرسة إذا ضمت إلى بعضها فلا تزيد عن ثلاثة أشهر ، وكان لزامًا علىّ فى هذا الوقت أن أقطع ستة أميال لكى أصل إلى المدرسة) ، ولكنه كان يعترف لخاصته بغير ذلك ، كما كان من المؤكد أنه كان يعرف القراءة والكتابة قبل مجيئه إلى ليبياهل ، وهناك من الأدلة التى تشير إلى أنه عندما جاء إلى ليبياهل ، كان يذهب إلى المدرسة فى صحبة أخويه تيودور ، وروبرت ، وقد كانوا يتلقون العلم على يد معلم ، كثيرًا ما كانوا يذكرونه بالخير والاحترام ويطلقون عليه « الأستاذ كولمان العجوز » ، حاول « زخريا » دراسة اللغة اللاتينية وحفظ منها

بعض الألفاظ القليلة ، وكثيرًا ما كان يردد بعض السطور من كتاب « الحروب الغالية » لقيصر.

وعندما كان يتحدث مع المقربين إليه فقد كان يذكر الحقيقة فى طبيعة سمحة (لقد كنت أنا ، وبوب وتيد ، وأرياه ، « وهو الاسم العائلى لشقيقه روفوسRufus » لقد عرفنا شارل ديكنز أيضًا . ولكن روف لم يستطع القراءة والكتابة ولكنه كان يحسب الأرقام جيدًا .

أما «روفوس Rufus» وهو أكبر الإخوة سنًّا فقد كلفوه بإدارة المخزن ، أما حياته ، فسنلتقى بسرد بعض الحقائق عنه فقط ، كانت حياته تجرى على وتيرة واحدة ، وكانت هادئة وخالية من المتاعب ، سارت من أولها إلى آخرها فى طريق واحد لم يتغير مطلقًا ، ولكن حين نشبت الحرب الأهلية اشترك فيها وعاشها إلى أن انتهت ، ثم عاد إلى مخزنه ليحقق هدفه ، وكان هدفه هذا هو الأعمال التجارية وجمع المال ، فقد كان الشىء الوحيد الذى يشغل باله ، وقد حققه إلى حد كبير .

لم يتزوج وحل محل أبيه فى إدارة الأعمال إلى أن أصبحت المؤسسة كبيرة وناجحة وصار هو من الأثرياء ، يقال عن الفرد عامة إنه : (عاش ثم تألم ثم مات) ، أما عن روف فكان الناس يقولون عنه : (إنه جمع مالاً ثم مات) لقد عاش فى بيت أبيه

الذى كان يقع فى شارع المدرسة ، وقد عاشت معه أخته « هاتى العانس » لتدبر له البيت ، ولم يكن ليحوله عن هدفه (جمع المال) أى مرح أو متعة أخرى فى الحياة ، حتى صار حرصه الشديد مضرب الأمثال ، ولذا كان أخوه زخريا يقول عنه :
(إذا سقطت على الأرض وكسرت ساقك فإن روف سوف لا يعبر الطريق لينجدك أو ليساعدك ، ذلك لأن هذا العبور سيتسبب عنه بلاء نعل حذائه) كما يقول أيضاً : (إن من عادة أخى روف أن يوقف الساعة عن عملها ليلاً حتى لا تستهلك) وأنه (كان إذا ذهب إلى الكنيسة وضع طابعين من فئة السنت فى وعاء المجموعة ، ويأخذ بدلاً عنهما « فكة Penny » .

فى أثناء حديثنا عن هذه القصة ، ذكرنا أنه كان « لبير جوينر » أربعة عشر أو ستة عشر ولداً وبنتاً (ذكراً وأنثى) من زوجته الثانية ، وقلنا إنه تركهم فى زبلون عندما رحل إلى ليبياهل ، والواقع أنه لم يتركهم كلية ، بل كان دائم الزيارة لهم ، ولكنه لم يصحبهم معه ، ذلك أنهم لم يظهروا أدنى رغبة فى الذهاب معه ، لذلك لم نتحدث عنهم ، وقد كان ضمن من بقى منهم على قيد الحياة ونجا من أمراض الطفولة الإناث الآتية أسماؤهن : بتسى Betsy ، وأليس Alice ، وميليسا Melissa ، وفلورابل Florabelle . ومن

الذكور : لافييت Lafayette ، وسام Sam ، وجون John، وكلوديوس Claudius ، وسيد Sid ، ورانس Rance . وسنتركهم الآن إلى عودة إليهم ثانية لو اقتضى الأمر ، ولكن يكفى أن نذكر الآن أنهم نشئوا فى القرية وتزاوجوا وأنجبوا أبناءً وأحفادًا ، عملوا فى الأرض وزرعوا الذرة والدخان ، وقطعوا الأخشاب ، كما عملوا أيضًا فى المنجم ، ولكن لم يذهب منهم أحد إلى « ليبياهل » سوى «لافييت » الذى ذهب إلى إخوته هناك فى وقت متأخر ، بسبب غير الذى من أجله هاجر إخوته الأولون إلى المدينة « ليبياهل » من سنوات مضت ، وسوف لا نذكر هذا السبب الآن ، فإن كل شيء مرهون بوقته لأن قصتنا الآن ، تُركز بكثير من الأهمية على من ذهب إلى ليبياهل من عائلة « جوينر » .

من المؤكد أن ليبياهل لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم حينما قدم إليها هذا الفرع من عائلة « جوينر » ، فقد كانت كأنها « حجر على الطريق » تشمل صالة للمحكمة مصنوعة من الخشب تحتوى على حجرة واحدة وكنيسة من الخشب ، ومخزن عام ، ومركز لإقامة الخيام ، وحانة متداعية لاستقبال المسافرين ، فهل هذه تكون مدينة ؟! ، ولكن هناك حقيقة واقعة وهى أن ليبيا هل كانت مدينة فى دور التكوين . وكانت المدينة التى يعتز بها كل سكان المنطقة .

وحين أصبح « بير جوينر » مالكاً للمخزن الكبير فى المدينة . وازدهرت تجارته ، قد أتيحت الفرصة لأولاده الأربعة للتعلم . وقد ترك الوالد الحرية لكل منهم أن يختار نوع التعليم الذى يرغبه ، أما « روف » الأكبر فقد اكتفى بإدارة المخزن ، وقد نجح فى ذلك كما لو أنه خلق لهذا العمل ، أما « زخريا ، وروبرت ، وتيودور » فقد أرسلهم أبوهم إلى المدرسة كل واحد منهم فى دوره وعندما يسمح سنه بذلك .

ومن المستحيل أن يعرف متى مرت بخاطر « زخريا » فكرة دراسة القانون ، فلابد أن تكون هذه الفكرة راودته مبكرة . فعندما كان صبياً فى الثامنة من عمره اعتاد أن يساعد شقيقه الأكبر « روف » فى أعمال المخزن فى أثناء غياب أبيه ، ومنذ ذلك الوقت اشتهر بين الأهالى بالفطنة ، وخفة الروح ، وموهبته الكبرى فى سرد الحكايات ، فكان محدثاً لبقاً حتى أن كثيراً من الأهالى كانوا يفدون على المخزن ليستمعوا إليه وهو يتحدث . وحتى داخل الغابات وفى الأماكن البعيدة ، كان هناك من يقدره ويحبه ، وفى هذه السن المبكرة لاحظ الأهالى أنه زلق اللسان ، ماهر فى التغيير برغم عدم ميله إلى الأعمال الشاقة ، حتى أن والده قال عنه يوماً : (ماذا أستطيع عمله معه إلا أن أجعل منه محامياً) فهو لا يعمل شيئاً ، هذا مؤكد . ثم يسترسل فى

الحديث بعد وقفة قصيرة ويقول : (ولكنه سوف لا يموت جوعًا) .

كان يسود الناس شعور بالارتياح إذا ما كان « زخريا » بينهم ، وقد ظهر هذا جليًّا عندما سيطرت عليه الحياة السياسية . فلقد أحبه الناس لا لوجوده بينهم فحسب ، بل لأنهم كانوا يشعرون أنه واحد منهم ، وزاد هذا الإحساس عندهم نحوه حتى اعتبروه « ملكاً » عليهم . وكان حبه للمرح ، وحسن تعامله مع الناس مصدر إعجابهم به . حتى كانت حكاياته تدور بينهم دالة على لباقته ومهارته ، حتى أن كثيرًا منهم كان يحس نحوه بالحسد ، لأنهم أناس عاديون ، أما هو ، فمن صنف آخر أعلى ، لا يستطيعون الوصول إلى مرتبته .

هكذا كان « زخريا » عندما ذهب إلى مدرسة Pine Rock للتدريب على القانون ليصبح محاميًا ، وكانت مدة الدراسة بها سنة واحدة ، (وكانت هذه المدة كافية فى ذلك الوقت) ، ثم تبعه أخوه « بوب » إليها وأمضى هو الآخر سنة واحدة ، أصبح بعدها محاميًا هو الآخر .

ولما رجعا إلى المدينة بعد ذلك وقبل طلبهما للمرافعة أمام المحكمة علقا لافتة تحمل اسميهما « جوينر وجوينر » على المكتب الذى اتخذاه مقرًّا لمزاولة المهنة ، وما إن مر على ذلك عام ١٨٤٠

حتى انتعشت أعمالها ونجحا نجاحًا كبيرًا

كان أهل هذه المدينة يعرفون من هم المحامون الأكفاء . فهذه الطائفة كانت تتكاثر فى سرعة فى هذا القرن . فمنذ إنشاء هذه المدينة وقد أصبحت مركزًا لإدارة المنطقة كلها . ففيها محكمتها وقضاتها المتجولون ، ومحاكماتها منذ ثلاثين عامًا . ولكن الشقيقين « بوب ، وزخريا » كانا نوعًا آخر إذ كانا أول محاميين من أبناء المدينة . أما غيرهم فكانوا غرباء عنها يأتون إليها من خارجها من مناطق وبلدان بعيدة ، وكذلك مدينة « بيد مونت » كان المحامون يأتون إليها فقط فى أثناء الموسم القضائى من مناطق أكثر تقدمًا ، ومن مجتمعات أكثر ازدحاماً . يأتون فى عربات وعلى ظهور الخيل وهم فى زيهم الرسمى الأسود ذى الذيل . يأتون إليها وقد شمخوا بأنوفهم ورفعوا رءوسهم وقد أغلقوا أفواههم . وحقائبهم مملوءة وعامرة بالأوراق التى تحمل الحيل وضروب اللؤم ، يأتون إليها على ظهور الخيل ، وفى عظمة يترجلون ثم يربطونها فى خيلاء وصلف فى مرابط الخيل أمام المحكمة . ثم يتكلمون ، ولكن بلغة خاصة لا يفهمها غيرهم ، ووسط دهشة الأهالى ، يتمتم هؤلاء المحامون بكلمات فى صوت خفيض ثم يقلبون أوراقهم بأصابع رفيعة . وبهذه الصورة يتكلمون . وهكذا يفعلون ، ثم فى الحال يرحلون عن البلدة تاركين الأهالى

فى دهشة غامرة بعد أن استولوا على أتعابهم منهم .

أما اليوم فقد تبدل كل شىء فقد رجع ولدا « جوينر » بعد حصولهما على إجازة القانون ، وبعد أن درسا فى مكان بعيد جداً أكثر بعداً من أى مكان درس فيه غيرهما ، حقًّا لقد اختلطا بأناس غير أناسهم ورأيا مدناً جديدة فازداد علمهما عمقاً وتعلما المحاماة ، وفى استطاعتهما الآن أن يتكلما وأن يكتبا لغة لا يفهمها أحد سواهما ، لقد عادا الاثنين « بوب ، وزخريا » بعد أن تعلَما كيف يتصديان للمحامين الآخرين . كما يستطيعان أن يتفوها بألفاظ كبيرة وعميقة وذات لون معين كما يتكلم المحامون .

لقد حسد الأهالى أنفسهم على هذا الفضل العظيم ، فضل المشاركة فى تنشِئة « بوب » وشقيقه . لهذا لم يستشعر الأهالى الخوف وإنما أحسوا بكبرياء التملك ونشوة الخضوع معًا ، لقد غمرهم جميعًا الشعور بالامتنان . فلئن كان حتماً أن يأكل الإنسان الحوت فليكن هذا الحوت من اختياره هو على الأقل ، حوت يعرفه وقد نشأ معه فى بلده ، لقد جمعا « بوب ، وزخريا » هذه الميزة . ميزة الانتماء إلى ليبياهل ولم يمض كبير وقت حتى استحوذا على كل الأعمال القضائية فى جميع أنحاء المنطقة .

كان تناقضًا عجيبًا حقًّا أن يكون هذان الأخوان قد جاءا إلى الحياة من بذرة واحدة ، وتربيا تربية واحدة ، وتعلما نفس العلم ،

واختارا فى بدء حياتهما نفس المهنة ، ثم نراهما يسلكان طريقين مختلفين ، إن طبيعة كل منهما المتباينة قد أدت بهما إلى السعى إلى هدفين مختلفين .

فمن الحقائق الأولى فى طبيعة « روبرت جوينر » أنه حينما راودته فكرة دراسة القانون ، فإنه أراد أن يدرسه فى عمق ، ويتغلغل فى كل جزئياته حتى يصل إلى أصل الشيء وجوهره ، حتى يجعله أداة طيعة لخدمة الصالح العام ، لقد هيأ نفسه منذ البداية ، وسخر كل مواهبه الشخصية والعقلية للوصول إلى هدف واحد ، وهو أن يصبح محامياً ضليعاً ، بل أحسن محام فى المنطقة ، وهذا كل ما كان يشغله ويملأ عليه تفكيره ولم يسمح لهدف آخر أن يستهويه أو يمر بخاطره .

أما « زخريا » فلم يكن اهتمامه بدراسة القانون اهتماماً صادقاً ، صحيح أنه أراد أن يكون محاميًا ولقد صار فعلاً واحداً من أبرزهم وأمهرهم فى المرافعات ، لقد كان وجوده فى قاعة المحكمة كفيل بأن يؤثر على المحلفين حتى ولو كانت الأدلة ليست فى صالح موكله ، ومع ذلك ، فإنه لم يرغب فى أن يستمر محاميًا ، ذلك لأنه كان يعشق أمرًا آخر أكبر كثيرًا من ذلك ، لقد رأى فى دراسته للقانون وسيلته الأكيدة للوصول إلى هذا الشيء ، هذا الشيء الذى كان يرغبه ويرجوه هو أن يكون سياسيًا ، فهذا هو

الدور الذى خلق من أجله ، إذ كانت عبقريته تتفق وهذا العمل أكثر من أى عمل آخر ، لذلك كانت دراسة القانون فى نظره أول خطوة ، وأثبتت الأيام صدق نظراته ، وأنها كانت خطوة موفقة .

فى بدء عملهما بالمحاماة كان « روبرت » هو الأكثر احتراماً ، وموضع ثقة الناس أكثر من أخيه ، ولكن « زخريا » كان الأكثر شهرة والأقرب إلى قلوب الناس ، وقد بدأتِ قدماه ترقبان أولى درجات سلم السياسة ، فقد كان دائماً وطوال حياته مترعماً لأى جماعة تلتف حوله .

كان « روبرت » يميل إلى العزلة والانفراد ، هادئ الطبع رزيناً ، ومستقيم الرأى عندما يتطلب الموقف استقامة الرأى . وبرغم ضروب الحيل والغش التى يقابلها المرء حين يشتغل بمهنة المحاماة ، فإن القلة من الناس التى عرفت « روبرت » عن قرب كانت تتنبأ له بمستقبل باهر فى مهنته ، وسنرى أخيراً وفيما بعد كيف أن « روبرت » نجح فعلاً فى حياته القانونية .

فى هذه الآونة تزوج كل من الأخوين ، وقد أحسنا اختيار شريكتيهما ،وقد تزوج « روبرت » بعد أخيه بقليل ، وقد أنجب ولداً واحداً فقط ، ورث عن أبيه أخلاقه الطيبة ، وعن أمه رقة شعورها ، أما « زخريا » فقد تزوج مبكراً قليلاً عن شقيقه ، وقد

أصيب أصدقاؤه المقربون بالدهشة حين رأوا أن « زخريا » ظل مخلصًا لزوجته طول حياته ، وقد أنجب ثلاث بنات جميلات وولداً واحداً ظل يعتز به أشد اعتزاز .

وقد بدأ الفرق بين الأخوين يظهر للجميع بمرور الوقت ، ولكن العجيب فى الأمر أن هذا الاختلاف لم يسبب أى صراع بينهما ، فقد كان كل واحد منهما يكمل الآخر ، ويُكن له كل احترام .

إن المجتمعات التى يسودها العنف والخروج على القانون ، هى فى نفس الوقت أكثر المجتمعات التى تحترم وتخلص فى احترامها لرجال القانون والمشتغلين به ، وأقوى دليل على ذلك ، هو ما حدث فى الولايات الجنوبية ، كان المشتغلون بالقانون فيها موضع احترام الجميع (الغنى والفقير) ، فالغنى يرى أن المشتغل بالقانون أكثر احتراماً ممن يعمل فى زراعة الإقطاعيات ، أما متوسط الحال فكان رأيه فى المشتغلين بالقانون ، أنهم يخلصون به من أسر حياته الضيق ، إلى رحاب حياة أوسع وأكثر ترفاً .

لذلك كان المسلَّم به بين سكان الجبال أن الابن اللامع والذكى يجب أن يتعلم القانون والاشتغال به ، فالمحامى فى نظرهم طبيب المجتمع ، وينظر البسطاء إليه على أنه الرجل المتعلم .

والحكيم ، والمنطلق اللسان ، كما أنه الرجل الذى يرتدى الملابس الأنيقة ، يداه بيضاء ويعيش فى بيت أنيق وتنهال عليه الأوسمة والهدايا من كبار المسئولين ، لأنه عبقرى ومؤهلاته تؤهله لذلك .

لكن الجانب السيئ فى القانون قد استشرت وتأصلت جذوره فى حياة المجتمع ، فهنة المحاماة قد أعطت الفرصة لكثير من الأشخاص معدومى الضمير أن ينقضوا على جيرانهم البسطاء ، والذين لم يكونوا أندادًا لهم ، وفى ظل النظام المعمول به كانوا يضطرون إلى الالتجاء لاستعادة حقهم إلى أشخاص كانوا السبب فى ضياع هذا الحق ، ولم يكن ذلك سببه أن المحامين أناس عير أوفياء ، بل لأن القانون كان ينقصه الكثير ليمنع جريمة الاغتصاب ، لهذا وجد المحامون الشرفاء أنفسهم مكتوفى الأيدى أمام هذا الإغراء الملح لاغتصاب أموال (الغير) .

وكان من سوء الطالع أن مهنة المحاماة منذ بدء الحياة الأمريكية لا يُنظر إليها كهدف فى حد ذاته ، بل كوسيلة لغرض آخر ، وهذا الغرض فى آخر المطاف ، هو المنفعة الشخصية والمكسب المادى الخاص ، مثلها فى ذلك ، مثل أى عمل تجارى آخر ، ففى التجارة لا بأس من المكسب المادى الخاص (الشخصى) ، ذلك لأن التجارة ليس لها أهداف اجتماعية وشخصية معًا . لذا كانت التجارة ومزاولتها من الأعمال التى نظر

إليها التاريخ دائماً بالحذر ، وكانت التجارة لا تحظى باحترام كبير من جانب المفكرين وأصحاب الرأى ، أما القانون ولو من الناحية النظرية على الأقل ، فمن المفروض أن يكون مختلفاً ، فهو يمثل أحد الوظائف الأساسية للمجتمع ، ولكن إذا حدث وتداخلت معه فائدة شخصية ، فإن ذلك يعتبر من باب المصادفة المحضة فقط ، لكى يستطيع المحامى أن يكسب قوته ، أما الواقع فكان غير ذلك ، إذا أصبح القانون هو الوسيلة إلى الفائدة الشخصية ، وأما الطريق إليها فكانت السياسة والصراع الحزبى ، والترشيح ، ثم الانتخابات لشغل الوظائف العامة .

لقد كان هذا هو الأسلوب الصحيح والمتبع أيام « زخريا جوينر » وكان الخروج يعتبر شذوذاً ، فالمحامى الذى لا « يشترك فى السياسة » أولا يظهر اهتمامه بها على الأقل يعتبر شاذاً ، لذلك عندما قرر « روبرت » أن يقصر عمله على مهنة المحاماة ، ورفض أن ينتمى إلى طائفة سياسية ، جعل الناس يعجبون لتصرفه ، فلما لم يجدوا رداً مقنعاً على عجبهم اكتفوا بهز رءوسهم وقالوا : (إنه وإن كان رجلاً مهذباً إلا أنه شاذ) ، أما أخوه « زخريا » فلم تكن خطوته غريبة بالنسبة للناس ، فحين دخل مضمار السياسة فإنه لم يعمل سوى العمل الذى كان ينتظره الجميع منه فلم يقره الناس فحسب بل وافقوه على هذه الخطوة بحماس شديد ،

وأظهروا هذا الحماس فى أول فرصة أتيحت لهم فقد صوتوا جميعاً فى جانبه .

كان الطريق الذى سلكه « زخريا » هو الطريق المتعارف عليه بين السواد الأعظم من الأمة ، وقد نجمت عنه نتائج ضخمة جداً ، إذ وقر فى نفوس الناس منذ بدء الحياة الأمريكية افتراض عام ، وهو أن مهمة القانون ، ومهمة العدالة ، أمران متعارضان ومختلفان ، وقد ظهر هذا التباين الكبير واضحاً فى مجتمع مثل المجتمع الذى نشأ فيه « زخريا جوينر » حيث الخروج على القانون والعنف والقتل فى أبشع صوره ، إلى احترام عميق للقانون ، أما العدالة فهى مسألة شخصية يمكن تحقيقها بالأسلوب الذى يراه الفرد ، القانون مسألة سياسية تتصل بالجميع ، ومن الأفضل أن يُنَحّى جانباً أهداف القانون ، وأن يترك لإجراءاته الطويلة المعقدة .

لهذا فقد يَقتل شخص ما رجلاً آخر فى سبيل العدالة ، ولكنه يذهب إلى القضاء لينجو برقبته من الموت شنقاً ، مثل هذه المحاكمات قد حضرها « زخريا » مئات المرات ، واشترك فيها ، إما ممثلاً للاتهام أو مدافعاً ، ومازالت تجرى إلى يومنا فى « زبلون » ولابد أنه لاحظ هذه الصورة المذهلة لهذا التناقض .

قتل رجل آخر وكان بينهما ثأر من سنوات مضت ، وقد جاء

الدور على محاكمته ، جاء الناس من جميع أنحاء المنطقة لمشاهدة المحاكمة ، وعلى منضدة خشبية بجوار أحد جوانب القاعة يجلس وكلاء النيابة ، وبجوارهم مستشار خاص استخدمته عائلة القتيل لمساعدتهم فى متابعة القضية ، وفى الجانب الآخر وعلى منضدة مشابهة تجلس مجموعة من المحامين الذين أحضرتهم عائلة المتهم (القاتل) للدفاع عنه والوصول إلى قرار من المحكمة بالإفراج عنه إن أمكن ذلك ، وخلف هاتين المجموعتين المتحاربتين بسلاح القانون يجلس الشهود على مقاعد متآكلة ويفصلها عن المنضدتين سور قصير من الخشب ، وهؤلاء الشهود قد دعاهم كل من هيئة الدفاع وهيئة الاتهام لتأييد وجهة النظر ، ثم الزوجات والأصدقاء والإخوان والأطفال والأقارب والجيران الذين قد يكون عندهم أقوال تفيد أيًّا من الطرفين ، وخلف هؤلاء تكتظ المقاعد المتهالكة بالمشاهدين ، أما طرقات القاعة فتزدحم بالواقفين من المشاهدين فى جو خانق فى منتصف يوليو حضروا بعد أن ارتدوا ملابسهم الزرقاء الباهتة اللون ، وعلى رءوسهم قبعات زرقاء داكنة ، أما فى منتصف القاعة وعلى منضدة مرتفعة قليلاً يجلس القاضى الذى يرأس الجلسة ، إلى يساره منضدة يجلس عليها صاحب الجلسة الذى يستدعى الشهود كما يجلس بجواره على نفس المنضدة كاتب الجلسة ، أما عن يمينه فيجلس مسجل الجلسة وخلفه مثبت على

الحائط العلم الأمريكى ذو النجوم والخطوط ، وعلى اليسار يجلس المحلفون الاثنا عشر الذين تمّ اختيارهم بعد ثلاثة أيام من البحث والمداولة بين الفريقين المتنازعين ، وقد تمّ إحضارهم من جهات بعيدة غير « زبلون » لأن كل سكانها أقرباء بصورة أو بأخرى ولا غرابة فى أن يكون القتيل والقاتل من الأقرباء ، الشعور مستقر والعواطف متأججة وذكريات الماضى لا تنسى ، كل هذا يخلق جوًّا من التعقيد والخطورة يجعل من الصعب أن تجد عددًا من المحلفين يصدر حكمًا غير متحيز .

الجو العام منفجر حتّى يخيل لك أنه لو أشعل أحدهم عود ثقاب لانفجرت القاعة واشتعلت . وهنا يأتى دور القانون وكلمته فهو يومه الذى يأخذ فرصته كاملة . فالجميع رجالاً ونساءً وأطفالاً ينتظرون كلمة القانون .

تبدأ المحاكمة من خلال هذا الموقف ، الموقف الذى لم يتغير منذ أن عرف « زخريا جوينر» المحاكمات واشترك فيها ، وضع مملوء بالمتناقضات عجيب ومثير يكمن فيه لغز الحياة الأمريكية بقسوتّها ، وعذابها بذنوبها ، وعدالتّها بقسوتّها ، وبخروجها على القانون والتزامها به أيضًا .

يجلس القاضى على المنضدة العالية (المنصة) بشعره الأبيض وربطة عنقه الرفيعة وقميصه الأبيض ، وملابسه السوداء ، وهى

الملابس الرسمية ، الدم بالدم ، والعين بالعين ، والسن بالسن مئات من قصص التآمر مرت به بالأمس ، كما أحس من قبل بهذه الأحاسيس والعواطف المتأججة ، إنه يعرف هذه الوجوه جميعاً ، بل يعرف أسماءهم وآثامهم ، لقد اتخذ مجلسه أمام هذا الأتون المضطرم بهذا الحشد من الناس متشحاً بالحكمة والشجاعة ، فهو رمز العدالة والقانون . بلغ الستين من عمره ، وهى نفس السن التى بلغها « روبرت جوينر » الذى كان يجلس فى هذه القاعة .

والآن يبدأ بقراءة الاتهام ثم يوجه الأسئلة الحرجة ويرد عليها ، من جهة اليسار يقف وكيل النيابة وتبدأ المحاكمة ، وينادى على الشهود فيقفون فى تكاسل خلف السور الخشبى المتآكل ، الواحد تلو الآخر ، امرأة عجوز شمطاء ، ثم رجل أشعث الشعر مظهره يدل على البلاهة ، ثم رجل ضئيل الجسم فتحسبه صبياً صاحب صوت رفيع ، ثم يأتى رجل آخر بنظراته المتأرجحة ، يبدو عليه عدم الاستقرار ولكن فيه ولاء ، ثم الزوجة زوجة القتيل ، حامل مترهلة ضخمة ، عيناها ممتلئتان بالدموع ووجه منتفخ ، الجميع وقوف يؤدون اليمين القانونية دفعة واحدة رافعى الأيدى ، ويستدعى الشاهد الأول للإدلاء بشهادته ويقف فى المكان المعد له . وتستمر المحاكمة : أين كنت

فى يوم ١٤ مايو قبل الساعة الثامنة بقليل ؟ ، هذا هو السؤال التقليدى الذى لم تتغير ألفاظه ولم تتبدل منذ أيام « زخريا » ، أما وكيل النيابة فهو رجل فى منتصف الثلاثينيات من عمره يميل إلى البدانة ، أطول من المتوسط (خمس أقدام و ١٢ بوصة ويزن ١٨٠ رطلاً) مجعد الشعر أحمر الوجه يميل قليلاً إلى السمرة فى نظراته تحير ، تعلم مثلما تعلم المحامى ، نراه مصصماً على إدانة المتّهم ، ولا دخل للعدالة فى هذا الموضوع ، لقد ارتكبت الجريمة فهو يعلم ذلك كما يعلمه الجميع ولا جدال فى ذلك .

فى مثل هذه المحاكم لا توجد جريمة من الدرجة الأولى وفى « زبلون » لم تحدث أحداث من الدرجة الأولى منذ الحرب الأهلية ، وكان وكيل النيابة يعلم تماماً أن المتّهم « رجل قوى » ومعروف أن عائلته قوية وكبيرة تملأ المنطقة ، وقد قتل أبوه من قبل ، ولكنه رجل محترم بين الأهالى ، وأن أقاربه لهم اتصالات قوية ، لقد جمع أهله حشداً من محامى الجنايات من بينهم عمه « مارتين » المحامى المشهور ، وهو من عمد الكنيسة أيضًا ، وكذا المحامى « زب بندرجرافت Zeb Pendergraft » أحسن محامى الدفاع فى المنطقة كلها ، أما وكيل النيابة فقد أعد مرافعته ليصل إلى إدانة المتّهم إدانة من الدرجة الثانية وعقوبتها من ١٢ سنة إلى ٢٠ سنة ، فإذا نجح فى ذلك فسيؤدى ذلك إلى ترقيته ، إنه يوجه

الأسئلة إلى الشاهد وفى هذه اللحظة يصدر صوت أجش وسريع كالبرق من الناحية الأخرى « اعتراض » إنه صوت « زب بندر جرافت » المحامى بوجهه الأحمر الغليظ الذى يجلس فى مقعده هازًّا ساقيه ، ويبصق على الأرض بين الفينة والفينة بقايا الطبق الذى لاكه فى فمه ، ينتهى دور النيابة فى مناقشة الشاهد فيأتى دور محامى الدفاع « زب بندر جرافت » إنك تعرف لماذا كنت هناك وإذاً فأروى على المحكمة ماذا سمعت .. أليس صحيحًا أنك كنت وقتئذ فى السجن بعد أن قبض عليك مخموراً .... فماذا تقول فى هذا ! ؟ إنك لا تعرف كيف كنت مخموراً ... إنك كنت مخمورًا وأنت لا تتذكر ذلك . أليس كذلك ؟ ! .

ثم يأتى شاهد آخر فيصيح به « زب » محامى الدفاع : كم مرة دخلت السجن ؟ أجب عن السؤال أمام المحكمة ... إنك لا تعرف كم مرة أنا أجيب عنك لقد دخلت ست مرات وحكم عليك بعشرين شهرًا ، وأنت هنا لتشهد ضد رجل يقدم للمحاكمة وقد تكون عقوبته الموت .

وهكذا وعلى هذا النمط تجرى فصول المحاكمة بين « اعتراض مقبول واعتراض مرفوض » وتستمر المبارزة بين الجانبين إلى أن يطلب المحامى من الشاهد : اذكر للمحكمة لماذا دخلت السجن كل هذه المرات ؟ فلا يجد هذا الشاهد مناصًا من الرد قائلاً مشيرًا

بأصابعه النحيلة نحو المحامى : « نعم لقد سجنت لأنى كنت مخموراً كما يفعل هذا طوال الوقت» وهنا تضج القاعة بالضحك وبأصوات الاستحسان وتصفيق حاد ، فيصيح القاضى فى غضب ويضرب بمطرقته المنضدة ، وقد احمر وجهه من خلف نظارته ويقول : (إذا حدث هذا مرة أخرى فسآمر بإخلاء القاعة ، لو أنى أعرف من المسئول عن هذا الإخلال لأمرت بالقبض عليه بتهمة ازدراء المحكمة .... سيدى الشريف ستكون مسئولا عن أى صياح وأى خلل بالنظام فى هذه المحكمة ... وإنى آمرك بإلقاء القبض على أى شخص تراه يثير الشغب ، فإذا لم يكن لديك قوة كافية من الرجال فإنى أستعمل سلطتى المخولة لى فى تعيين نوابًا لك) ثم يقول بعد ذلك فى صوت هادئ : (إنه لمن العار أن يأتى البعض منكم إلى المحكمة الموقرة كما لو أنهم يأتون إلى السيرك) ، فيخيم على القاعة سكون كسكون القبر ، وعندما يرى القاضى أن كل شيء قد استتب وأصبح على ما يرام يقول فى نبرة هادئة : « السيد المحامى .... يمكن الاستمرار » ، ثم تستأنف هذه المسرحية ، وهذه المأساة تحصل فى كل يوم ، وفى كل وقت ، مأساة العنف ، مأساة الجريمة ، ومأساة العواطف الإنسانية بل هى مأساة المجتمع الإنسانى كله .

الفصل الخامس

الفارس ذو الريشة

« تيودور Theodor » هو أصغر أولاد « بيرجوينر » من زوجته الأولى ، كما هى العادة مع أبناء الرجل العصامى أن ينال الابن الأصغر فرصة من التعليم أكبر من الأولاد الآخرين ، ولكن « زخريا » حين تذكر أمامه هذه الحقيقة يقول : (انظر ماذا كانت النتيجة) ، لأن هذه العائلة مع احترامها الشديد للتعليم وللعلم ، فإنها لم تحترم الرجل الذى يصيب قدراً من التعليم ، ثم لا يفيد من تعليمه هذا فى الوصول إلى أهداف عملية .

وعلى العموم فقد وجه تيودور إلى دراسة القانون كأخويه الكبيرين فتبعهم إلى مدرسة « بين روك Pine Rock » فأمضى

بها السنة التدريبية ، ولكنه لم يعد ، بل استمر فى دراسته ، إلا أن الحظ الحسن لم يحالفه وفشل المرة تلو المرة حتى قال والده : « إنه لا يصلح لأى عمل ، سأرسله إلى المدرسة ثانية » ، وكانت النتيجة أن بقى تيودور فى المدرسة ثلاث سنوات حتى حصل على الدبلوم ، فأصبح تيودور أول دارس حصل على شهادة عالية من بين أفراد هذه الأسرة ، واختار تيودور مهنة التعليم وأصبح مدرسًا فى ليبياهل حيث كان الإقبال على التعليم المتقدم شديدًا ، وأطلق عليه لفظ « الأستاذ البروفوسير » وقد بدأ مع عشرين طالبًا زادوا إلى ثلاثين ، وكان يتقاضى ثلاثين دولارًا عن الفصل الدراسى الواحد ومدته خمسة شهور ، ولم يمض وقت طويل حتى نمت المدرسة واتسعت (مدرسة البروفوسيرجوينر) واضطر تيودور أن يبحث لها عن مكان أفسح وقد سمح والده باستخدام قطعة أرض مرتفعة وتبعد قليلا عن النهر وعن البلدة بميلين ، وهناك بنى تيودور منزلاً له وآخر من الخشب ليجعله فصولا ومأوى للطلبة ، وأطلق على هذا المبنى الخشبى (أكاديمية مرتفعات جوينر) ، ومع مضى الزمن ازدادت المدرسة انتعاشًا ودرت عليه أموالاً كفته تكاليف الحياة حتى أنه قنع بالاستمرار فى البقاء هناك .

ولكن .... وقبل اندلاع الحرب الأهلية بثلاث سنوات حدثت مفاجأة كبرى . إذ اجتاح الجنوب شعور جارف باقتراب

وقوع الصدام ، فكانت فرصة أفاد منها تيودور ، فقد حول فى الحال مدرسته إلى (أكاديمية مرتفعات جوينر الحربية) فزاد عدد الطلبة المسجلين بها من ٦٠ طالبًا إلى ٨٠ طالبًا وتحول هو نفسه من مدرس عادى فى مدرسة أرياف إلى رجل عسكرى .

لم يكن « زخريا » عادلاً حينما كان يطلق دعاباته مستهزئاً بالمدرسة وبجهود شقيقه تيودور ، فقد قال عنه يوماً ما : (إن « تيودور » يفضل ألف مرة مجرد النظر إلى الكسوة العسكرية من أن يرتديها) ، وبالرغم من ذلك فإن « تيودور » (المعلم الوحيد بالمدرسة) بذل جهداً كبيرًا فى تدريب الطلبة على النظام العسكرى .

كما لم يكن « زخريا » منصفاً فى دعاباته التى أطلقها على الطلبة ، فقد بذل تيودور ومساعده الوحيد فى تدريبهم الشاق والعنيف ، لدرجة أن الحشائش كانت تذوى تحت وطأة أقدام الطلبة عند سيرهم فوقها بأحذيتهم الغليظة ولباسهم العسكرى . ولقد اشتمل برنامج الدراسة القليل من تاريخ الحرب النابليونية واستراتيجيتها ، وعندما أعلنت الحرب الأهلية فى أبريل عام ١٨٦١ توجه الطلبة جميعًا إلى الميدان وكان على رأسهم تيودور نفسه .

ولكن المشاكل الحقيقية بين « زخريا » و« تيودور » جاءت

بعد الحرب ، فقد كانت هذه الحرب حدثًا ضخمًا فى حياة « تيودور » لم يستطع تخطيه مطلقاً ، إذ كانت حياته قبل الحرب ليس لها معنى ، وليس فيها إثارة ولا هدف لها ، ولكن بعد اشتراكه فيها وعودته منها تحول تيودور إلى محارب محترف ، فقد ظل يتحدث عن مغامراته الحربية دائماً وكان هذا مما يغضب « زخريا » ، وقد أزداد هذا الغضب مع مرور الزمن حتى أنه لم يدع أى فرصة تمر دون أن يكون « تيودور » هدفًا لدعابته ونكاته .

مجلدات ضخمة يمكن أن نكتب عن كل فرد فى هذه العائلة ، وحبذا لو كتبت قصة حياة « روبرت » المليئة بالنبل . فهى حياة نبيلة حقًّا يستحقها بجدارة على طريقة بلوتارك أو قصة الآنسة « هاتى » المليئة بالفضائل ، تصوير حياة « روف » بطريقة بلزاك ، أما قصة حياة « زخريا » فلو أنه كتبها بنفسه وبأسلوبه بشرط أن يكون واثقاً من أن كل الحقائق ستذكر ولا تتسرب واحدة منها ، وألا تضر حياته السياسية فلن نجد أفضل منه ليعمل هذا العمل ، أما « تيودور » فسنحاول أن نكتب عنه بقدر المستطاع فى الصفحات القليلة القادمة ولو أننا نعرف مقدمًا أن هذه المحاولة سوف لا ترضيه كثيرًا ولن تفيه حقه

كان من اللازم أن يكون « لتيودور » مجموعة صور لشخصه

حتى تسترعى انتباه « روبنز Rubens » فيأمر تلاميذه الأربعة عشر برسمه بالألوان الزاهية ، وأما فوداه وشاربه الطويل فيرسمها « فانديك Van Dyke » وأما الضوء والظلال فيضيفها إلى الرسم « رمبرانت Rembrandt» .وأما الكسوة العسكرية فتكون من نصيب «ڤيلاسكويز Velasquez» ثم تعطى الصورة من بعد ذلك إلى « دومير Daumier» ويقوم بوضع اللمسات الأخيرة هنا وهناك الفنان جورج بلجرGeorge Belcherبريشته الساحرة ، إذا تم ذلك كله فربما أعطيت صورة صادقة لحياة هذه الشخصية العظيمة شخصية الكولونيل « تيودور جوينر C.S.A »

لقد صار « تيودور » صورة حية للكولونيل الفارس صاحب الريشة المثبتة فى خوذته من أهل الجنوب ، وما إن حلت سنة ١٨٧٠ حتى كان « تيودور » قد ألم بجميع القصص الحربية فى المعارك ، إلا أن « زخريا » كان يطلق على هذه المعارك اسماً معيناً (معارك السحب ، والمعارك الخيالية) أما هو فقد كان يستعمل الألفاظ الرنانة عند التحدث عن الحرب . فإذا جاء ذكر الجنوبيين فإن صوته يصير همساً ولكنه همس فيه احترام كبير ، فقد كان يسمى الحرب « واجبنا » وعلم الاتحاد « الراية المقدسة المصبوغة باللون الملكى الأحمر– دم الأبطال » فإذا حدث وأصغى شخص لقصصه عن المعارك لظن أن هذه المعارك تقع

بين مئات الألوف من فرسان المائدة المستديرة ، فرسان الملك آرثر وهم يحاربون فى شجاعة منقطعة النظير حتّى الموت ضد الطرف الثانى ، وهم بضعة ملايين من الرعاع ذوى القلوب السوداء ، وأن الهدف من هذه الحرب كان (الدفاع عن كل مقدساتنا وشرف المرأة من أهل الجنوب) .

كان تيودور يبدو كلما استرسل فى قصصه – تجسيدًا حيًّا للعسكرية الجنوبية ، فشعره طويل حتّى كتفيه ، هذا الشعر الذى دب الشيب فيه فزاد من وقاره واحترامه ، كثيف شعر الحاجبين يحرك رأسه كما يفعل الأسد العجوز ، فى صوته نبرة من الزئير خاصة عندما يقول فى عاطفة صادقة جياشة (لم أكن أحلم يا سيدى .... لم أكن أحلم عندما تحركت على رأس طابور من طلبة الأكاديمية العسكرية ، بأنهم جميعًا قد تطوعوا كرجل واحد . جميعهم يا سيدى صغار السن ، ولكن كان يخفق بين جوانبهم قلوب أبطال .... ١٣٧ (مائة وسبعة وثلاثين) من الشبان ، ثم يزأر كلهم تحت التاسعة عشرة من عمرهم .... تخيل هذا ! ؟) وهنا يعلق « زخريا » فى صوت هادئ وخبيث : « تيودور » دقيقة واحدة من فضلك .. أنا لا أشك فى صدق حديثك ، ولكن إذا أسعفتنى الذاكرة ، فإن الأرقام والحقائق التى ذكرتها الآن تحمل شيئاً من المبالغة ، فيميل « تيودور » قليلاً

إلى الأمام ويقول (ماذا تقصد يا سيدى) ؟ وكيف يكون ذلك ؟ ! . وفى هدوء يجىء رد « زخريا » : (حسناً أنا لا أذكر أبدًا أن عدد المسجلين فى الأكاديمية قبل الحرب ، قد ارتفع إلى هذا القدر الكبير ١٣٧ طالبًا تحت سن التاسعة عشرة) ثم يضيف : (ألا ترى معى أن الأرقام تصبح أقرب إلى الحقيقة لو أنك قلت إن عددهم كان تسعة عشر شخصا تحت سن ١٣٧ سنة) فيثور « تيودور » ويندفع قائلاً : (سيدى .... سيدى) ويلتقط أنفاسه فى صعوبة ويقول : (لماذا يا سيدى ثم يرمى أخاه بنظرات ملؤها الغيظ ثم لا شىء بعد ذلك) .

ولكن .... لا يمكن أن ننكر شجاعة وفضل وشرف طلبة « تيودور » مهما كان عددهم ١٩ – أو ٥٠ – أو ١٣٧ ، فقد ذهبوا للحرب كرجل واحد ولم يرجع الكثير منهم ، لقد غابوا عن التلال أربع سنوات نمت خلالها الحشائش وأغلقت الأكاديمية أبوابها ونوافذها ، وحين وضعت الحرب أوزارها وعاد « تيودور » إلى بلدته وجد التل وما حل به وما حل بمبانى الأكاديمية من خراب ، فقد ارتفعت الحشائش وحتى الأجراس التى كانت تتدلى من رقاب العدد القليل من الأبقار التى كانت ترعى هناك ، حتى هذه الأجراس ، كانت تدق نغماً حزيناً أمام الأبواب الموصدة للمبانى المهجورة ، لقد انحدرت إلى عالم النسيان طيلة

الأربع سنوات .

والآن قد عمت الدهشة والحيرة أرجاء الجنوب ، كما ساد الشعور بالخيبة ، وإن كانت حالة « تيودور » أشد كثيراً من حالة الآلاف الذين عادوا من الحرب ، ذلك أنه وجد أن الش الصغير الذى كان يعيش من أجله قد التهمته الهزيمة الكبرى منى بها الجنوب ، فلم يبق شىء فى مكانه ، فلم يدر ما يضع و على هذه الحال حتى عام ١٨٦٩ حين بدأ يجمع أطراف شجاء وهمته فى شجاعة ، وبمعاونة بعض من المال الذى اقترضه ، ولده ، استطاع إصلاح حال المدرسة وأعاد فتحها من جديد

وبافتتاح أكاديمية «جوينر» الحربية من جديد استهل « تيودور » مرحلة جديدة من حياته ، ولكن عندما عقد العز، على استعادة المكان والسير قدماً فى حياته من حيث كان قد انتهى به المطاف قبل قيام الحرب الأهلية ، وظن أن الأمور ستسير مجراها الطبيعى ، التى اعتادها كما لو كانت الحرب لم تنشب ، وكلما أخذت الأمور فى التبلور ، وانهمك هو نفسه فى مشروعه أحس بأن هناك تغييرًا كبيرًا قد طرأ عليه وعلى شعوره ، فكلما دنا موعد افتتاح الأكاديمية زاد شعوره بأن هذا الأمر ليس مجرد وصل ما انقطع من حياته ، بل إنه أكثر بكثير من ذلك ، بل أحس أيضًا ، حقيقة أن الحرب عمل بطولى كبير لا يمكن

إنكاره ، ولكن قد ظهر الآن أن الجنوبيين (وفق المقاييس) قد حققوا نصرًا عظيمًا حتى وهم مهزومون ، وأنه هو نفسه قد قام وره فى صنع هذا النصر.

لم يهتم « تيودور » كثيرًا بمعرفة العملية النفسية التى أوحت إليه ذه الفكرة ، وأن مثله فى ذلك كمثل باقى الآلاف من أهل لجنوب ، الذين وصلوا هم أيضًا إلى نفس الفكرة وتبلورت فى فوس السكان ، وأصبحت حقيقة اعترفوا بها ، وجعلوا منها منطلقاً لحياة وطنية جديدة .

وحول هذه الفكرة أنشئوا عددًا هائلاً من أساطير الحرب . أساطير كان مجرد الشك فى صحتها يعتبر خيانة عظمى ، فقد أصبحت الحرب بهذه الطريقة ليست مجرد حدث يبدأ ثم ينتهى ونتخلص منه إلى الأبد فحسب ، أو حدث نطرحه جانبًا ثم نسدل عليه ستار النسيان ويطوى مع الماضى الذى دفن فحسب ، اعتبرها سكان الجنوب مجموعة من الحقائق وإن كانت ماتت ، إلا أنها مازالت تنبض بالحيوية ، مليئة بذكريات عزيزة عليهم أكثر من الحياة نفسها ، حتى بلغت مع مرور الزمن درجة التقديس ، ودرجة العقيدة عند الشعب ، وتحت وطأة هذه العقيدة فى هذه الأساطير تكاسل أهل الجنوب واسترخوا مستعذبين الحياة ، بعد أن أداروا ظهورهم للمتاعب وللحقائق

المرة التى كانوا يواجهونها كل يوم فى شتى نواحى الحياة ، ولجأ
القوم إلى هذا الحلم الناعم عن الأمجاد الغابرة ، أمجاد كانت فى
خيالهم فقط ، أمجاد لم يكن لها وجود بالمرة ، وكان أول مظهر
لأحلام اليقظة هذه هو هذا الخاطر الذى استولى على
« تيودور » ، وكان راقداً فى فراشه فى الليلة السابعة لليوم العظيم ،
يوم إعادة افتتاح الأكاديمية الحربيه من جديد . لقد كان راقداً
وهو بين اليقظة والنوم ، وترك لخياله العنان فى أن ينتقل بين
صفحات الماضى وذكريات المغامرات فى ساحة القتال ، وبين
ترتيبات الغد حين يفتح الأكاديمية رسمياً ، فامتزج فى « تيودور »
الأمران معاً وأحس أنهما أصبحا شيئاً واحداً ، ورأى أن
الأكاديمية قد أصبحت جزءاً من الحرب امتدت واتسعت حتى
جاء الحاضر ، ومنه إلى الآفاق العريضة للمستقبل ، هنا غمر
وعيه سيل من العبارات الرنانة والشعارات الحماسية ، كانت محور
خطابه فى يوم افتتاح الأكاديمية ، نعم لقد أثارت هذه الشعارات
قدراً كبيراً من المرح والدعابة فى المدينة خاصة بعد تعليقات شقيقه
« زخريا » .

ومنذ ذلك اليوم يوم الافتتاح للأكاديمية قال عنه الأهالى :
(إنه تربى ونما مع الأكاديمية) ، وعلى العموم فقد انتعشت
الأكاديمية فى هذا الجو المشحون بالوطنية ، هذا الجو الذى ساعد

كثيراً على بعثها من جديد فصار « تيودور » رمزًا للتقاليد العسكرية لفترة ما بعد الحرب ، ومثلاً للثائر الرومانسى المنتقم ، ورمزًا لفصيلة كاملة من الفرسان ذوى الخوذات التى يعلوها « الريش » وحتى صار هو نفسه يعتقد أنه كل هؤلاء فعلاً .

وطبقًا للقصص التى عاصرته ، لم يكن « تيودور » متعصبًا للجنوب عندما ذهب إلى الحرب ، كما لم يكن « أستاذًا » فى استعمال الأسلحة الإستراتيجية فى ساحة القتال ، ولكن مع مرور الوقت صادفت هذه الأمور هوى فى نفسه ، فقام بهذا الدور إلى آخر العمر حتى بدا وكأنه المحارب العجوز الكامل .

امتنع الناس منذ وقت عن المزاح والتهكم لادعاءاته إلا أخوه « زخريا » الذى بقى الوحيد الذى يجرؤ على مناقشته علانية . وكان « تيودور » يحتمل هذه السخرية من أخيه لأنه كان يعتبره شخصًا ممتازاً عن بقية الناس ، لقد أصبح « تيودور » موضع احترام الكل وخاصة طلبة الأكاديمية الحربية الشبان الذين اعتبروه رمزًا مقدسًا .

وفى الأيام الأخيرة كان من المألوف أن يشاهد « تيودور » كل يوم اثنين (يوم العطلة الرسمية للأكاديمية العسكرية) راكبًا عربته ، وهى من الطراز الفيكتورى يقودها حوذى أسود فى يديه قفازاً أبيض ، وعلى رأسه قبعة عالية من الحرير ، أما الكولونيل

فكان دائماً يرتدى ملابسه الاتحادية الرمادية اللون ، وعلى رأسه يضع قبعته التى ترمز إلى جيش الاتحاديين ، وعلى كتفيه (صيفاً وشتاءً) شال رمادى ، وكان من عادته ألا يتكئ بظهره على الوسادة الخلفية للعربة ، بل كان يجلس معتدلاً منتصباً كالسهم ، ولكن حين تقدمت به السن وأصبح من الصعب عليه أن يجلس منتصباً استخدم عصا ليستند عليها ، وكان من عادته أن يمر بعربته خلال شوارع البلدة قابضاً على عصاه بيديه التى أصابهما الشلل ، وعلى وجهه بثرات حمراء (من كبر السن) ومرسلاً نظراته اللامعة يميناً ويساراً ، وقد علا عينيه حاجبان كثيفان بشعرهما الأشيب ، مطبقاً بشفتيه بسبب أسنانه الصناعية ويعلو فمه شنب غليظ انتشر فيه اللون الأبيض ، وكان فى هذه الأثناء كثيراً ما يطلق الألفاظ والأوامر العسكرية إلى حوذيه العجوز مثل « إلى الأمام » أو تسمع تعليقاته التى تنم عن الازدراء الشديد عندما يقع نظره على بعض طلبة الأكاديمية ، وهم جلوس أمام باب مخزن الأدوية كأن يقول : (ليس من بينهم رجل واحد بمعنى الكلمة .... انظر إليهم .. إنهم نوع من الضعفاء الجبناء . إنهم غير آبائهم أو مثل رعيلنا الذى خرج يوم الحرب كرجل واحد ، وكان أشجع الشجعان ، وزهرة الشباب ، لقد كانوا ١٣٧ طالباً تحت سن التاسعة عشر..... إلى الأمام أيها الوغد .... إلى الأمام) .

الفصل السادس

معركة مرتفعات هوجوارت

مضى عام على إعادة افتتاح أكاديمية « جوينر » الحربية وتزوج «تيودور» من الآنسة «إميلى دروم جول Emily Drumgoole » واعتبر الناس هذا الزواج زواجاً موفقاً ، فالآنسة « إميلى » من فرجينيا وابنة لأحد الضباط السابقين فى الجيش الاتحادى ، وأحد الفرسان الذين اشتركوا مثل ما فعل الزوج فى الحرب الأهلية ، كان أبوها يدير مدرسة بالقرب من بلدة « ونشستر Winshester» . لقد كانت الزوجة من نساء وادى « شيناندوه Shènandoah » الخصيب ، الذى اشتهر بمنازله الفخمة ، وقصوره المنيفة فى الوقت الذى كانت فيه مقاطعة « زبلون Zebulon » عبارة عن برارى تطأ أرضها قبيلة

« شيروكي Cherokee » الهندية . كان هذا الزواج بالنسبة « لتيودور » صفقة رابحة وموفقة ، فالزوجة لم تكن من عائلة « دروم جول Drumgoole » فحسب ، بل كانت أيضاً جميلة لا يعيبها سوى هذا الأنف الطويل المتعالي ، وحين قدمت إلى «كاتوبا» عاملها الأهالي بشيء من التحفظ باعتبارها غريبة عنهم ، غير أنها كانت امرأة على قدر كبير من الثقة بالنفس وقوة الشخصية ، فلم تضيع وقتها في الندم على حياتها الماضية الرغدة ، بل أخذت تفكر فيما يمكن أن تقبله في حياتها الجديدة ، وما يمكن أن ترفضه ، وبهذه العقلية العملية جاءت زوجة تيودور إلى مرتفعات هوجورات وأقامت بها .

لقد سعدت بصداقة « روبرت » وعائلته وأصبحوا أقرب الناس إليها لأنه كان صديقاً حميماً للجنرال « جوبل إيرلي Jubel Early» الذي كان ينتمي إلى ولاية فرجينيا مثلها وكان « روبرت » في رتبة عميد ، حتى أنه لما جاء الجنرال « إيرلي » ليزور « روبرت جوينر » دعته زوجة « تيودور » في بيتها وأقامت له وليمة تكريماً له حضرها كل مرافقيه .

أما « زخريا » فكان بالنسبة لها كقطعة لحم يصعب هضمها ، حاولت أن تستميله ولكنها فشلت ، فآثرت البعد عنه ، إذ لم تحتمل سلاطة لسانه وخشونة طباعه حتى ظنت أنه يفتعل هذا

الأسلوب من المعاملة الخشنة فى حضرتها ، لأنه يشعر بأنها أنبل منه ، حقًّا لقد كان رجلاً مشهوراً ولكن شهرته لم تتعدى «كاتوبا» لقد كان حاكماً ، ولكن لولاية «كاتوبا» . والآن أصبح عضوًا فى مجلس الشيوخ ولكن عن ولاية «كاتوبا» ، فلقد كان يلوك الطباق فى فمه ، ثم يبصق عصارته كما كان يلقى المُلَح (النكات) ، وينطق ألفاظاً لا تتناسب والرجل المهذب ، كل ذلك كان يفعله فى حضورها ، حقًّا إنه متعلم أكثر منها ومعلوماته أوفر ، وأنه يستطيع التحدث بعبارات رشيقة وجميلة عندما يرغب فى ذلك ، إلا أنه كثيرًا ما كان يستخدم ألفاظ السوقة عن عمد ، كما كان يشيد بالوجبات الشعبية الفقيرة وكم كان يسعده ويسره أن يقص قصصًا عن أبيه ، وكيف كان يسير حافى القدمين ، وأنه لم يتعلم القراءة والكتابة حتى سن الأربعين ، كل هذه الأحاديث ، وهذه القصص ، وهذه الفكاهات كانت تروى أمامها وفى حضرة أصدقائها .

أما «هاتى جوينر Hattie Joyner» فلم تنل حظوة كبيرة لدى زوجة تيودور ، ذلك لأنها كانت شديدة الشبه بأخيها «زخريا» فى سلاطة لسانها الجارح ، وعدم قدرتها على التحفظ فى الحديث ، أما أخوهم «روفوس Rufus» فكانت فكرتها عنه بأنه رجل متحجر وجلف ، تنبعث من ملابسه رائحة أصناف

البقالة والبضاعة ، وتسيطر على فكره الأرقام والأسعار وتقلبات السوق ، هكذا كانت نظرتها لأفراد عائلة « جويتر » لذلك لم تكن لها فرصة كبيرة فى إختيار أصدقائها فلم تر بدًّا من صداقة الدكتور « بورلى Burleigh » طبيب الأسنان وزوجته وأولاده الثلاثة وبناته الثلاث ، وإن كانت تقول عنه : إنه دكتور غبى ، أما عائلة « راندولف Randelf » وهى العائلة الثانية التى ارتبطت معها بصداقة فقد كانوا ينتمون إلى « فرجينيا » وينحدرون من عائلة كبيرة مازالت تعيش هناك .

لقد كانت زوجة « تيودور » تؤمن بمقاييس دقيقة يجب مراعاتها فى اختيار الأصدقاء ، هذه المعايير لم تكن معروفة عند جيرانها ، فلقد ظلت هذه المرأة متمسكة بهذه المعايير طوال أيام حياتها : فالحكمة والذكاء والجاذبية والشخصية وأى ميزة أخرى طبيعية ، لم تكن أبدًا ضمن مقاييس هذه المرأة ، وإنما المقياس الوحيد عندها هو « العائلة » وإنصافاً لها لم يكن الثراء من بين ما يعنيها من معايير ، والدكتور « مورلى العجوز » مثلاً كان فقيرًا كما كان بطىء الفهم . وكذا رب عائلة « راندولف » كان قليل الثراء إلا أنهما كانا من أصدقائها ، ذلك لأنهما من « عائلة » .

لقد أنجبت السيدة « تيودور » فى سرعة مذهلة ثلاثة أطفال . فولدت « إميلانى Emmeline » بعد عام من الزواج ، وبعد

أحد عشر شهراً أنجبت ذكراً أسمته أمه فى الحال « دروم جول Drumgoole » على اسم عائلتها ، وفى السنة التالية أنجبت ذكراً آخر ، وتمسك « تيودور » فى هذه المرة بحقه فى تسمية المولود ، لأنه شعر بعدم الرضا لانفراد زوجته بهذا الأمر عند الصبى الأول ، فاستبعد أسماء : هانيبال ، وفابيوس ، واستقر على تسميته « جوستاف أودولف » واعترضت الأم ، ولكنه أصر فى حزم فكان له ما أراد بعد أن أقنعها بأن لفظة أدولف لها جرس جميل فى الأذن ، كما أنها سهلة المنطق فيسهل على العائلة أن تنطق الاسم بدون مشقة ، ولقد تفرد هذا الابن – دون أخويه – بجمال الصورة والذكاء.

نشأت « إميلانى » تحت كنف أمها ، ولكنها كانت فتاة سمجة غير محبوبة وغير متطلعة ، شديدة التحفظ (ولا ندرى سبباً لهذا التحفظ فى بلد منعزل كمرتفعات هوجارت) . فهى لم ترث عن أمها مميزاتها ، فكانت الأم معروفة بجمالها وأخلاقها وشخصيتها ، ولكنها أخذت عنها فقط حب الظهور والتعالى فكان لها أنف بارز وطويل ، وحين وصلت إلى سن معينة أُرسلت إلى مدرسة بنات ، وهى مدرسة مشهورة فى فرجينيا وهذه المدرسة عبارة عن ناد أنيق لبنات الجنوب ، حيث يستطعن البقاء فيها حتى يتزوجن أو يبلغن سن اليأس ، وفى هذه الفترة المدرسية تملأ رءوسهن

بالتافه من المعلومات والثرثرة ، وبعض العادات التى كانت تسود حياتهن العظيمة ، وعلى العموم كان يذهب إلى هذه المدرسة بنات العائلات التى تعنى بحب الظهور .

أمضت «إميلاى» أربع سنوات فى هذه المدرسة عادت بعدها إلى البلدة بعد انتهاء الدراسة فيها ، لقد تعلمت فيها كل أسرار الموضة والعادات الكمالية الأخرى ، ولكنها عادت ومعها ذلك الأنف الطويل ، ولم تستطع تبديله بأى شىء نافع ، ونهدان مفلطحان ، وعقلية تافهة وصغيرة ، وحين بلغت الثانية والعشرين لزمت المنزل .

أما أخوها « دروم جول الصغير » فلم يكن أسعد حظًّا من شقيقته ، فقد ربته أمه فنشأ مثل أخته ضيق الأفق . أما والده فكان يتطلع إلى أن يراه طالباً فى « أكاديمية الوست إند العسكرية » ليتحلى بالأخلاق القوية المتينة ، لقد تحقق فعلاً حلم الوالد حين سافر الولد إلى تلك الأكاديمية بعد أن زوده بالنصائح والعظات ، ولكن خاب ظنه وذهبت آماله أدراج الرياح ، حينما لم يستطع الابن الاستمرار فى الدراسة حتى نهاية الفصل الدراسى الأول ، فقد أصابته مدفعية « علم الهندسة » بنيرانها فتراجع أمام أول هجوم ، كما أنه لم يستطع الصمود أمام مدفعية مادة « التفاضل والتكامل » البعيدة المدى . وإذاً لم يبق أمامه من

فرص سوى أن يذهب إلى مدينة « شارلوتفيل Charlottesville » ويسجل نفسه فى جامعة فرجينيا ، وقلما تستحق الذكر فترة حياته هناك ، اللهم إلا أنه تعلم فيها بعد عناء كبير كيف يحمل الكأس بيده كما يفعل الناس المهذبون . وهذا كان أشق ما تعلمه هناك فى هذه الجامعة ، ومن ثم عاد إلى بلدته وقد نبت شارب أصفر اللون فى وجهه ، ثم عين فى أكاديمية أبيه برتبة « ميجر » على أن يلى أباه فى القيادة ، هذا إلى جانب قيامه بتدريس مادة الرياضة وحساب المثلثات والتفاضل والتكامل .

وإذا كانت حياة « دروم » النفسية قد اصطبغت بطابع أمه وحياته الخارجية كانت تعبيراً عن آمال أبيه ، فإن حياة « أدولف الشقيق الأصغر » كانت تتحكم فيها أهداف وآمال أخرى خاصة به شخصيًّا ، فقد كان أدولف واحداً من الطلبة الذين فى استطاعتهم أن يحتلوا مكاناً مرموقاً ومشرفاً فى أكاديمية « الوست إند » العسكرية لو أراد ذلك ، ولكنه ما كان يبغى ذلك لأنه اختار أن يقتفى آثار أخيه الأكبر ويذهب هو أيضاً إلى مدينة « شارلوتفيل Charlottesville » وعلى مدى سنى الدراسة بها بدأت تظهر عليه ملامح وصفات ميزت حياته فيما بعد . حقًّا لم يكن متفوقاً فى دراسته لأنه لم يبذل أى جهد للوصول إلى التفوق ، بل قنع بمجرد النجاح بدرجة مقبول ، وكان هذا الأمر

يسير عليه ولا يرجع ذلك إلى أنه كانت تنقصه روح الجد
العمل لا ، لقد كان لديه قدر كبير منها (الجدية) كان •
دهشة زملائه لأنهم يجهلون ما يدور بخلده من أفكار ، فقد
يسعى إلى تحقيق أهداف تبدو فى نظره أكثر أهمية وأعز م
شىء فى حياته الأكاديمية ، لقد كان هذا الشاب الأمريكى
كان يحمل اسماً من أسماء القرون الوسطى ، كان هدفه العالم
والعالم بأجمعه والعالم عنده هو الصَّدَفة التى يبحث
الصَّدَفة التى تحمل اللؤلؤ ، ويسعى إليها منذ نعومة أظف

إن جغرافية «كاتوبا الغربية » وما فيها من ملامح كانت
الخيال ، لقد تكلم كتاب كثيرون عن عزلة هذه التلال السحر
وعن حياة سكانها الجبليين ، وبعدهم عن العالم فى البقا
أكواخهم ، كان هذا كله حقيقة واقعة وملموسة ، فعلى
الجبال كهوف ومنازل خشبية بل جحور ، وكذا تعيش عائ
كاملة فى الأودية الضيقة التى تمتد بمحازاة القباب الرملية
تسمى قباب « كلينج مان Clingman» والتى لم تغادر مكانها
من قرية « ليبياهل » وكأن العالم الصاخب خلف الجبال ، غ
عنهم وغريب عن أفكارهم وتصوراتهم كشعب « ت
Tembuktu ، ولكن إذا ما سقطت البذرة على الأرض ا
أو سطع البرق على الصخرة المختارة ، فستنبت شجرة البلو

وسينفجر الماء بغزارة من هذه الصخرة تماماً مثل ما حدث للنبى « موسى » ، وحينئذ سيظهر النبى الذى سيرى عن بعد الأرض الموعودة والذهبية كما رأى موسى .

لقد كان « جستاف أدولف » هو هذه الأرض الموعودة وكان هو تلك الصخرة المختارة ، فلما ظهر البرق كان هناك « جوستاف » مستعداً لتلقى الضوء ، حين كان طفلاً كان يقلب نظره فيما حوله من مرتفعات هوجارت ، فيرى على بعد سلاسل الجبال الضاربة بقممها فى السماء ، فلم يضيع وقته فى البحث عن الكهوف المختفية ، وعمن كان يقطنها ، فلقد نسيهم الناس برغم أن دماءهم قد انحدرت إليه هو ، وجرت فى عروقه عبر السنين التى مضت ، ولكنه كان يمد ببصره ، وينفذ برؤيته النفاذة إلى ما هو أبعد من تلك الجبال الشاهقة ، يرى بعين المستقبل المدن الذهبية فى الأودية .

إن مجرد إمعان النظر إلى هذه التلال العظيمة (تلال هوجارت) من خلال جوها الساحر ، وهذا اللون الأزرق الذى ينساب من هذا الأفق البعيد ، يبعث فى نفس المشاهد شعوراً بوجود طريق سحرى من صنع الزمن ، ومملكة خيالية على الأرض ، ولا يوجد مكان على الأرض أصلح لهذا العالم المضىء من مرتفعات هوجارت . فمن أعلى هذه المرتفعات ترى العين هذا

المنظر الفريد ، وقد امتزجت فيه العظمة بالبساطة ، والبعد بالقرب ، والشعور بالغرابة والألفة ؛ امتزجت فى وحدة شاملة شملت الزمان حاضره ومستقبله ، وعلى مبعدة أميال جهة اليمين ترتفع تدريجيًا الهضبة حيث تقع مدينة ليبياهل Libya Hill » وحيث تبدأ سفوح جبال « سموكى Smoky » تظهر لأول وهلة وتأخذ فى الارتفاع طبقة فوق طبقة حتى تصل إلى قممها العالية ، ومن فوق هذه القمم يظهر للمشاهد هذا العالم الخيالى ، ويمتد به البصر حتى اللانهائية ، أما ناحية الشمال والشرق والجنوب فترتفع جبال « ردج Ridge » فى أكثر ألفة للمشاهد ، فمن أمام وتحت هذا المشاهد تقع « ليبياهل » حيث تمتد هذه البلدة الصغيرة فى غير انتظام على عرض هذه الهضبة ، وقريبًا من مرتفعات هوجارت . إن قلب المدينة أو القسم التجارى منها يتراءى كشبح غير واضح المعالم وسط سحابة الدخان التى تحمل رائحة الفحم ، ولكن خارج قلب المدينة نرى هذا المجرى المائى الذى يدور ويتعرج ، كأنه يتسكع دون هدف حتى يخرج من البلدة ، ثم يختفى بين الجبال ليصب فى نهاية رحلته فى نهر « تنسى Tennessee » ، وفى شهر أغسطس تقل الأمطار وكذا المياه فى النهرين ، حتى أن الأطفال تعبرهما على الأقدام ، أما فى الربيع أو شهر يونيو فتهطل الأمطار بغزارة فيملأ النهر ويفيض وتدب الحياة

فيه ، حتى لتصل المياه إلى حافة القنطرة الخشبية ، ومن هذه الأوقات المتغيرة نفهم لماذا أطلق السكان الأوائل على هذه المنطقة اسم « كاتوبا » .

وهناك وعلى قمة التل قضى « أدولف جوينز » أكثر أيام طفولته وهو راقد على الحشائش الخضراء (وكان يرتاح كثيرا لذلك) ناظراً إلى النهر ، وهو يشق طريقه من بلدة إلى أخرى ، ولكنه كان يسير مع النهر بخياله خلال الأراضى والمروج الخضراء حتى يصل بالخيال إلى الأرض الذهبية .

ولو أن الناس تساءلوا لماذا يقضى هذا الصبى هذه الساعات الطوال فى عزلة فى أعالى التل حالمًا ؟ لأمكنهم أن يفطنوا إلى أن دنيا هذا الصبى فى ليبياهل ، أو فى مرتفعات هوجارت ، أو فى الأكاديمية العسكرية ، دنيا ضيقة بالنسبة له ، ولو أن والده كان يريد أن يتبع أولاده ما كان يفكر فيه وما يسميه (تقاليد العائلة فى حمل السلاح) ، فقد كان يستريح إلى أن تتضافر مواهب ولديه ليحملا رسالته فى الأكاديمية من بعده ، ولكن هذا لم يتحقق . ذلك لأن « دروم » كان يتشكل فى سهولة حسبما يريده الوالدان ، أما أدولف فكان نمطاً آخر .

لقد كان صغير الجسم معتدل القامة رشيقًا كالسهم ، هكذا كان أدولف — يضاف إليها سرعة البديهة ، وكذا قوة بدنية

وصلابة . ولكن صلابته هذه كانت أيام طفولته تكسوها غلالة من الرقة ، فلقد ورث عن أبيه أسلوبه فى المجاملة ، وفى تعامله مع الناس ، ولكن دون ما إسفاف . لقد كان مظهره الخارجى ينم عن الرقة والأدب الجم . كان خفيض الصوت لا تشوبه رنة غضب ، ولا يؤذى الأذن عند سماعه . كان بلسمًا للأعصاب حتى أنهم أطلقوا عليه فى الكلية فى أثناء الدراسة فى شارلوتفيل Charlottesville اسم « الحرير » وكانت هذه الكلمة تعبيرًا دقيقًا عليه وعلى أخلاقياته ، لقد كانت تحليلاً لشخصيته ، غير أنه كان كقطعة من الحديد ملفوفة بالحرير أو حجر من الصوان المغلف بالحرير .

ومن أهم مميزاته أنه لا يعرف الشىء الصحيح إذا رآه فحسب ، بل كان يتوقعه قبل غيره من الناس ، بل ويتعرف مكانه أيضًا . إن الشىء الصحيح عنده فى بساطة هو الشىء المفيد النافع . فالمنفعة عنده هى موضع الاهتمام الأول . نظرته للحياة نظرة واقعية وللفائدة ، لا يعترف بأى فائدة ما لم تنعكس عليه شخصيًا . وكذا مدى اهتمامه بالناس والأشياء ، بقدر ما سيعود عليه من نفع لتحقيق أهدافه ، فهو لا يضيع وقته فى البحث عن صداقات لا نفع من ورائها ، فالذين لا فائدة ترجى منهم يطرحون جانبًا ، وفى قسوة حتى أن الضحية التى يبعدها

عنه ، لا تحس بأنها طردت خارج البيت إلا عند إحساسها لذعة البرد .

وفى أثناء حياته بالكلية ، اشتهر أدولف بعنايته الفائقة فى اختياره الناس ، وكذا الجمعيات التى ينضم إليها والاتصالات التى يجريها ، وبالرغم من ذلك ، فقد أفاد من الحياة الجامعية واعتصرها إلى آخر قطرة فيها وطوعها فى مصلحته ، ومع ذلك فلم يبد أمام أصدقائه المقربين إلا الشخص اللطيف المهذب . والصديق الصدوق الجذاب ، وأيضاً الكسول فى بعض الأحيان ، وبعد مضى عدة سنوات فى شارلوتفيل حصل على درجته العلمية فى القانون ، ثم سافر إلى « هيدلبرج Heidelberg » حيث أمضى بها فصلاً دراسياً واحداً . وهنا نجده قد توج هذه الفترة بأن أقدم علىَ عمل الشيء الذى لم يتوقعه أى فرد يعرفه جيداً ، ولكنه بالنسبة له فهذا هو الشيء الذى عاش معه فى قلبه وفكره . إنه الشيء الذى هدته له غريزته واعتبرته الشيء الصحيح . لذلك لم يتوان فى القيام به . لقد عاد من « هيدلبرج » بعد رحلاته وهو أكثر رقة ونعومة ، وأعلن فى صوت خفيض هادئ بأنه قد قرر الذهاب إلى الغرب إلى ولاية « أوكلاهوما Oklahoma » ثم أضاف بأنه مصمم أيضًا على البقاء بها والعمل هناك . فى هذه البلاد التى كانت تعيش فى هذه الآونة

على هامش الحضارة ، بلاد تبدو لوالدته (التى سيطر عليها الخوف والشفقة معًا) أنها بقاع متوحشة ولا تناسب الرجل المهذب ولا تصلح إلا لسكنى قبائل السيوكسى الهندية (Sioux) .

فلو أن للأمطار التى تسقط على جرف صخرى أملس من أثر عليها ، لكان لدموع أمه وتوسلات أبيه وتأنيباته من أثر عليه حتى تحوله عن هدفه ، لقد قرر الرحيل وإنه لراحل ، ولنتركه هنا الآن وسنعود إليه بعد قليل ، ولكن قبل أن نذهب ونذير ظهورنا إليه يجب أن نعلم علم اليقين بأن « أدولف » لم يذهب إلى « أوكلاهوما » ليجمع الأزهار ، بل ذهب ليثقف الناس وليجعلهم يعملون مثله العمل الصحيح مهما كان نوع هؤلاء السكان ، ولسوف يصب فى آذانهم بطريقته الناعمة هذا الهدف فيؤدى بذلك عملاً صحيحًا .

بينما كان أولاد « تيودور » يكبرون ويشبون على مر السنين ، حدث فى ليبياهل حادث شد انتباه الناس جميعًا ، لقد هبط على الأهالى كهبوط الصاعقة ، فلم ينقطع حديثهم عنه أو حتى مجرد التفكير فيه لحظة واحدة ، فالجميع مشغولون به ومهتمون به ماعدا « السيدة تيودور » فهى لم تأبه له منذ البداية ، فلقد كشف هذا الحادث عن المعدن الحقيقى لهذه السيدة .

فى أواخر السبعينيات جاء رجل إلى ليبياهل يدعى « جورج فيلت George Willet وكان أحد سراة الناس ، فقد كان واسع الثراء وكثير البر والخير ، إلا أنه قد جمع ثروته الطائلة هذه – كبقية أقرانه الأغنياء – من الكسب غير الشرعى ، والذى كان سبباً فى استنزاف البلاد لمدة قرنين من الزمان فبعد أن قام بجولة واسعة فى الجبال والمناطق المجاورة استقر رأيه على شراء مساحة واسعة من الأراضى شملت ثلاث مقاطعات ، ليجعل منها مقرًّا له ، ثم جلب أمهر العمال والصناع والمهندسين والفنيين بالمئات من إيطاليا والمدن الكبرى من الشرق ، لقد كان جيشاً حقيقيًّا من البنائين ، والنجارين ، وقاطعى الأحجار والأخشاب ، هذا الجيش كله كان لإنشاء قصر ريفى كبير على أملاكه التى تبلغ مساحتها مائتى ألف فدان ، قصر لا مثيل له من قبل ومن بعد ، حتى الآن فى أمريكا كلها ، حتى قيل عنه إنه أكبر مقر خاص فى العالم أجمع .

كان الناس جميعاً فى دهشة لكل خطوة فى تنفيذ هذا المشروع إلا « السيدة تيودور » ، كما أسلفنا ، فقد كانت تجلس فى هدوء تام فى شرفتها فى مرتفعات هوجارت وتشاهد بين الفينة والفينة هذا التطور ، وكان فى استطاعتها من بيتها أن ترقب من خلال الأميال من الأراضى الخضراء هذا القصر ، وهو يرتفع

كقلعة أسطورية مصنوع من الرخام الأبيض على خلفية من الغابات الغنية بالأشجار الخضراء. حقًّا ما أفقر مرتفعات هوجارت وبيت «السيدة تيودور» إذا ما قيست بهذا القصر. ولكن كل هذا لم يحرك لها ساكناً.

يستطيع «جورج فيلت» أن يمتلك ست مقاطعات إذا أراد، وقد يستطيع أيضًا أن يبنى قصرًا من الرخام يحوى أربعمائة غرفة بدلاً من المائتين وستين الجارى بناؤها الآن، وقد يستطيع أن ينفق أربعين مليوناً من الدولارات إذا أراد أيضًا بدلا من العشرين مليونًا التى يتكلفها مشروعه الحالى، ولكن هذا كله لايغير من شعورها نحوه. فلسوف لا تهتم به أو تأبه لوجوده والسبب فى ذلك يرجع إلى أنها سمعت يوماً عن أبيه أنه كان يقود مركباً صغيراً (معدية) فهذا كاف ليضع حدًّا لكل شىء، فهو لاينتمى إلى «عائلة» وهذا يكفى عندها لتلغى وجوده، أما باقى الناس فقد كانوا يتدافعون لمشاهدة السيد «جورج فيلت» هذه الشخصية الأسطورية الفريدة، بل لقد كانوا يقرصون أنفسهم عند مشاهدته حتى يتأكدوا أنهم ليسوا فى حلم، بل فى يقظة تراه العيون، حتى يقصُّوها على حفدتهم بعد ستين سنة، لقد سيطر اسم جورج وقصره على حياة هذه البلدة الصغيرة كسحر سحرهم، ما عدا «السيدة تيودور» التى جلست على مرتفعات

هوجارت ولم يظهر عليها أدنى انفعال بذلك ، كان من الطبيعى ألاّ تهتم عائلة « جورج ڤيلت » لهذا الإعراض فى أول الأمر.

ولكن مرت الأيام والسنون وقد تم البناء وأقامت العائلة فى القصر المنيف ، وقدم جميع الأهالى فروض الطاعة فى مهانة ما عدا هذه السيدة التى تعيش على مرتفعات هوجارت ، فى بادئ الأمر سحرت فخامة القصر الناس ، ثم تحول السحر إلى دهشة عارمة ، وفى النهاية غلب القصر الناس وأضعفهم لسلطانه ، مر الزمن وزاد الهمس بين الناس حتى بلغ آذان « جورج فيلت » بأن السيدة التى تعيش على مرتفعات هوجارت لم تكترث بالقصر ولا بساكنيه ، وأنها قالت : وليغفر لنا الله إن « جورج فيلت » ليس من عائلة ، وأن سيدة المنزل القديم والتى لا تملك سوى عربة يجرها حصان واحد سوف لا تسمح لنفسها باستقبال أصحاب القصر ، كانت هذه المعاملة مدعاة للسخرية ، بقدر ما كانت بعيدة عن التصديق ، كانت أمرًا سخيفًا وباختصار كانت أمرًا لا يمكن احتماله ، إذ لم يسبق أن تعرضت عائلة فيلت لمثل هذه المعاملة ، وإذًا فيجب وضع حد لها . لقد كانت محصلة كل ذلك فى يوم لا يمكن أن ينسى عندما أقدمت عائلة « فيلت » على عمل لم يسبق لها أن أقدمت عليه . فقد طوت كبرياءها فى جعبتها ، ثم قامت بالزيارة ، ولمن ! لشخص غريب عنهم ،

ولكن كان يتعالى عليهم فى صلف وبرود .

لم يسجل التاريخ أن أجراس الكنائس قد دقت رنين الحزن ، وأن الأعلام قد نكست أو أن الناس اصطفوا صامتين منكسى الرءوس فى حين كانت السيدة « فيلت » فى عربتها تعبر شوارع « ليبياهل » فى طريقها إلى مرتفعات هوجارت . ومازال الناس يذكرون هذا اليوم ويعتبرونه يوماً لا مثيل له بين الأيام .

من الممكن لعامة الناس أن يشاهدوا احتفالات تتويج الملك . أما مراسيم ارتدائه الحلة الملكية فهذا لا يراه سوى أفراد العائلة الملكية وبعض من النبلاء المقربين فقط ، وعلى هذا فما جرى فى هذا اليوم المشهود ، كان يجب أن يظل فى طى الكتمان .

غير أن الشائعات كالدخان يمكن أن تتسرب إلى الخارج من خلف الجدران السميكة ، تقول الشائعات إن السيدة « فيلت » قد استيقظت فى هذا اليوم عند الفجر ، وهو ما لم تعتاده من قبل ، ثم طلبت إفطاراً خفيفاً على غير عادتها . وقد ألمح الخدم والحراس والوصيفات الفرنسيات وغيرهم بعد ذلك بأن السيدة « فيلت » لم تكن فى هذا اليوم على عادتها تماماً ، فقد بدت شاحبة الوجه هزيلة ترتعش يداها الصغيرتان المحلاة بالجواهر عندما أعادت (الفنجان إلى الصينية) ثم طلبت علبة سعوطها ، وأخذت منه مرتين بزيادة مرة على ما جرت عليه عادتها ، لقد

قطعت مسافة الثمانية الأميال من القصر حتى الباب الخارجى فى عربة يقودها حوذيان ، ومن خلف مقعدها وقف رجلان مشبكا الأيدى ، والجميع يرتدى المزركش من الملابس ، أما الخيل فقد طهمت بالفضة (إنه موكب ملكى) غير أن طريقة نشرها لمظلتها كشفت عن مدى اضطرابها وتوتر أعصابها وشرود ذهنها ، حتى أنها حين مرت العربة تحت قوس البوابة الخارجية ، كان يبدو على وجهها شىء من الصرامة حتى أنها لم تستطع أن ترد على تحية الحراس بالبشاشة المألوفة عندها .

لاحظ الأهالى هذا التوتر عندما مرت العربة الفخمة عبر شوارع البلدة ، وهى تجرى فى سرعة رتيبة ، وكانت الشمس ساطعة ، وطاقم الفضة على الخيل يلمع كحلم عذراء ، لقد كان الفصل ربيعاً تفتحت فيه الزهور ، وتجاوبت فيه ضحكات الأطفال والمحبين وابتسمت الطبيعة ، أما السيدة « فيلت » فلم تبتسم بل ارتسم على وجهها الحزم والصرامة وانشغال البال فلم تلتفت إلى الوجوه والعيون والابتسامات والقبعات التى كانت ترفع لتحيتها ، كانت كمن قُدّ من صخر ، عبرت العربة فى دلال الشارع الجنوبى الرئيسى ، ثم دارت ودلفت إلى ميدان الكلية ثم شارع « مونتجمرى » ثم صعدت نحو التلال خارج المدينة ، ومن هنا ثار الغبار من حوافر الخيل ، حتى غطى طاقم العربة من

الرجال ، وحتى أصاب وجه السيدة « فيلت » . وبعد لأى عبرت العربة القنطرة الخشبية المقامة على نهر يقع تحت مرتفعات هوجارت ، ثم سارت فى طريق غير معبد كثير الحفر ، مما جعل العربة تمايل يميناً ويساراً ، ثم دارت فى منعرج لتصل بعده إلى الأكاديمية وأخيراً وصلت العربة إلى المنزل ، فنزلت السيدة « فيلت » من العربة وصعدت درجات خشبية لتصل إلى الشرفة ، حيث كانت السيدة « تيودور » تجلس منتصبة القامة بشيء من البرود ، سارا معاً فى صمت تام كان من المفروض أن يتناولا الشاى معًا ، مر بعض الوقت دون أن تنطق أى واحدة منهما بكلمة ، وبعد صمت مضن ومؤلم قطعته السيدة « فيلت » بقولها : لقد سمعت الكثير عن « مسز جوينر » فتطلعت لمقابلتها منذ فترة من الزمن . أما « السيدة جوينر » فقد تحدثت بعد فترة من الصمت وقالت : أعتقد أنكم غرباء عن هذه المنطقة ، أليس كذلك ؟ حاولت أن تستوعب السؤال قبل أن ترد السيدة « فيلت » ، نعم . ... أنا .. .. أنا . . . . نحن لم يمر على وجودنا هنا سوى ستة أشهر . ثم عادا إلى صمتهما مرة ثانية .

وأخيرًا قالت السيدة « فيلت » : « أتعشم أن تأتى لزيارتنا قريباً » لم ترد « السيدة جوينر » على الفور ، بل مالت برأسها قليلاً إلى الأمام ، ثم قالت : (أظن أنك وزوجك من الشمال ، أليس

كذلك ؟) فأجابت الأخرى : (نعم ، ولكن كانت جدتى لأمى من أهل الجنوب) فسألت « السيدة جوينر » فى اهتمام بالغ : (من أى عائلة) فأجابت « السيدة فيلت » : (من عائلة مارسدن Marsden فى فرجينا) فقالت الأخرى فى برود مصطنع : (من أى فرع ؟ من الجنوب الغربيين أم من التايدوتر ؟) فأجابت وقد عيل صبرها : « من التايدوتر Tidewater » فمالت الأخرى برأسها وقالت « آه » وكان جلياً أن هذه « الآه » لم تكن بها حرارة التسليم التى تدل على الألفة ، ولكنها كانت مختلفة كثيرًا ، ولا مثيل لها فى العواطف . ثم استأنفت سؤالها قائلة : (وأمك هل هى الأخرى من أهل الجنوب أيضاً ؟) فأجابت « السيدة فيلت » : (كلا إنها من أهل الشمال) ثم استطردت فى اندفاع (ولكنها من عائلة دايكمان Dyekman من نيويورك) فسألت الأخرى فى حدة : (هل كانت هذه العائلة إحدى العائلات الألمانية ؟) فأجابت السيدة فيلت : (نعم ، إنها من أقدم العائلات الألمانية ، وإنى لأؤكد لك أنها من أقدم العائلات الألمانية) فلزمت « السيدة جوينر » الصمت برهة ، ثم رفعت قدح الشاى مرة ثانية ، ثم قالت : (لقد ترامى إلىّ أنها من ضمن العائلات الألمانية الطيبة) ، ثم رشفت قليلاً من الشاى ، ثم أعادت القدح مرة أخرى . فتنهدت

« السيدة فيلت » من كثرة ما عانت بصوت مسموع .

وأخيراً تكلمت مرة أخرى « السيدة جوينر » وقالت فى ابتسامة وهى تضغط كلماتها : (يسعدنى أن أقوم بزيارتك إذا ذهبت إلى المدينة) .

الفصل السابع

الغريب صاحب المبدأ والفكرة

منذ خمسين عاماً كان يعيش فى مدينة « ليبياهل Libya Hill » رجل من أكثر الناس غرابة ، فهو غير عادى ، فقد أثر فى حياة البلدة كلية ، وكان تأثيره بطرق شتى وغريبة ومشوقة ، لم يسبقه أحد إليها من قبل ، اسم هذا الرجل « فيبر Weber » .

كان الوقت خريفاً ، أى فى أوائل شهر أكتوبر من عام ١٨٨١ ، عندما سافر القاضى « روبرت جوينر » شقيق « زخريا » إلى بلدة « ميلرتون Millerton» وهى على مسافة أربعة وعشرين ميلاً ، وذلك لحضور جلسات محكمة المنطقة ، التى كانت تعقد هذه المرة فى هذه المدينة . وكان « زخريا » قد سافر هو الآخر إلى

« واشنجتون » ورأى عند عودته منها أن يتوقف فى ميلرتون ويمر على أخيه فيها .

وبلدة ميلرتون هذه هى آخر نقطة وصل إليها شريط السكة الحديد فى هذه الأيام ، ولم يكن الخط الحديدى قد وصل إلى « ليبياهل » بعد ، وإن كان فى سبيل الإنشاء ، وكانت هذه الأعمال تعتبر عملاً هندسياً فذًّا فى هذه الآونة ، فقد كان المسافر فى هذا الوقت على هذا الخط الحديدى عليه أن يدور فى شكل حلزونى لمسافة ثمانية أميال ، وهى المسافة من ميلرتون إلى مكان (بأسفل الجبل) يسمى « ردجبول جاب Ridgepole » أى « فتحة ردجبول » على ارتفاع ١٤٠٠ قدم . إنها رحلة مثيرة حقًّا وممتعة فى الوقت نفسه ، وبها أماكن يمكن أن ترى الطريق الأسفل من سبع جهات .

كان كل ذلك فى مرحلة الإنشاء ، وقد انتهى مساحو الأرض توًّا من تقدير درجات انحدار الطريق ، ووضعت العلامات على الطريق الترابى لتيسير مهمة المهندسين والعمال والعربات ، ولكن للوصول إلى « ليبياهل » كان لزاماً على الناس أن يركبوا العربات ، وهذه العربات كانت تقوم من « ميلرتون » فى الساعة الواحدة بعد الظهر من كل يوم لتصل إليها فى السادسة مساء ، وهو وقت معقول جدًّا خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار

مسافة الثمانية أميال الأولى التى تتصاعد إلى أعلى ، لم تكن هذه العربة فى نظر أهل الغرب وسيلة انتقال مناسبة دائماً ، فهى عربة لستة أشخاص يجرها حصانان ، فإذا ما أمطرت السماء يصبح الطريق الذى يدور حول الجبل حتى فتحة ردجبول مستنقعاً مليئا بالوحل ، وكانت العادة أن ينزل الركاب عنده ثم يسيرون على أقدامهم .

فى هذا اليوم جاء « زخريا جوينر » من « واشنجتون » بالقطار الذى وصل وقت الظهر ، وقد تناول الغداء مع أخيه فى حانة «كراندال Grandall » وهى عبارة عن فندق ريفى ، تبدأ عنده رحلة العربات . لاحظ « زخريا » أن « فيبر » قد وصل معه فى القطار نفسه ، وطوال الوقت الذى أمضاه مع أخيه فى تناول الطعام كان دائم التعليق على هذا الرجل ذى المظهر الغريب ، استقل « فيبر » العربة مع « زخريا » وشقيقه وجاء مقعد الرجل خلف « زخريا » وكما كانت عادة « زخريا » فقد بدأ الحديث معه .

لهذه العربة ثلاثة صفوف من المقاعد وفى الأمام يوجد مقعد الحوذى وبجانبه مكان يتسع لشخص واحد ، وخلف مقعد الحوذى مقعد آخر إذا جلس عليه شخص فإن ظهره يصبح فى ظهر الحوذى ، وفى مواجهة المقعد الثانى يوجد مقعد ثالث ، كان

فى العربة فى هذا اليوم خمسة أشخاص فقط ، فاتخذ القاضى مقعده بجانب الحوذى فى الأمام ، أما « زخريا » فقد احتل المقعد الذى خلف الحوذى وأصبح أمام « فيبر » على يسار العربة . ثم كان معهم سيدتان (أم وابنتها) وكانتا تقصدان « فتحة ردجبول » فقط .

وبدأ « زخريا » الكلام على طريقته الخاصة ، وكان « فيبر » يجهل من يكون هذا الرجل وإن كان الآخرون يعرفون من هو . ولم يمض وقت طويل حتى كان الجميع ينخرطون فى الضحك على نكات « زخريا » فى الوقت الذى كان ينظر فيه « فيبر » إلى « زخريا » بشىء من الحيرة .

وفى سرعة سأله « زخريا » إلى أى بلد يقصد ، وعما إذا كان غريباً عن هذه الجهات ، وهو على يقين من أنه غريب حقًّا . فأجابه « فيبر » بأنه لم يسبق له زيارة «كاتوبا » وأنه يود الوصول إلى « ليبياهل » فعاد زخريا وسأله : (هل أنت من أهل الشمال) فرد عليه بالإيجاب وأنه من « بنسلفانيا Pennsilvania » .

أجاب هذا الغريب عن هذه الأسئلة دون تردد وبمنتهى الوضوح ، إلا أنه لم يكن على استعداد لإضافة أية معلومات أخرى عن شخصه ، سأله « زخريا » إن كان هدفه من وصوله

إلى « ليبياهل » زيارة شخصية فأجابه : « فيبر » بالنفى ، ثم أضاف إنه يعمل فى عملية البناء فهو قادم إليها ليتولى عمله فى بناء الفندق الكبير الجديد الذى كانت عائلة « كوركوران Corcoran » ترمع تشييده فى « بلمونت هل Belmont Hill» فى وسط المدينة . فاستخلص « زخريا » من كل ذلك أن الرجل عامل من العمال خاصة ، وأن يديه غليظتان وقويتان ، كما أن نظراته تدل على معاناته الطويلة ، كما لاحظ أيضًا أن آثار استعمال المسطرين مازالت على أصابعه ، وحين تحسنت أحواله المادية بعد ذلك ، اقتصر على الإشراف على العمال ، ومع ذلك ، فإن هذه الآثار بقيت ظاهرة ، ويستطيع الإنسان أن يشعر بها إذا ما صافحه بيديه .

استقبل الناس مقدم « فيبر » بالاهتمام والرضا وخاصة بسبب حرفته ، وكان من المعروف أن عائلة « كوركوران » غنية ، وأنها قدمت مؤخرًا إلى هذه المنطقة وابتاعت مساحات كبيرة من الأراضى ، وأنها خططت لإقامة مشروعات عديدة ، كان هذا الفندق إحداها ، وكان المليونير (رجل من الشمال) جورج فيلت George Willet، قد جاء هو الآخر إلى المنطقة من سنوات قلائل واتخذ من أملاكه الواسعة مقاماً ومقرًّا ، كما جاء غيرهم كثيرون ، فلم ينقطع سيل الوافدين إلى البلدة ، وكثيرًا ما كانت

تشاهد الوجوه الجديدة فى شوارع البلدة . ولما كان مشروع ربط البلدة بالسكة الحديد على وشك الانتهاء ، فقد سرى شعور عام بين الناس بقرب وقوع أحداث خطيرة وعظيمة ، وأن القدر يخبئ للمدينة مستقبلاً باهراً ، حقًّا لقد حان الوقت عندما أخذت « ليبياهل » فى التحول من بلدة جبلية صغيرة ومنعزلة ، بل غير معروفة للعالم وبسكانها الذين لا يتعدون بضع آلاف من الناس إلى بلدة حديثة ، تضطرم بالحركة ، وتربطها السكة الحديد بجميع أجزاء المناطق الأخرى ، وأصبح عدد سكانها فى ازدياد مستمر بعد أن وفد عليها أعداد كبيرة من الأغنياء الذين سمعوا عن جمال مناظرها الطبيعية فأقاموا فيها ، وكان هذا فى الواقع تباشير الانتعاش والازدهار .

أما « زخريا » فقد أكد للغريب فى أثناء الرحلة بأنه قادم إلى أعظم منطقة فى العالم . ثم تحول الحديث إلى السفر والرحلات بالقطار ، وقد كان فى ذلك الوقت أكثر صعوبة وأكثر تعقيداً عما هو عليه الآن . أما « فيبر » فقد علق على ذلك بقوله بأنه قطع هذا الطريق الطويل من « بلتيمور Baltimore » وأن هذه الرحلة كانت شاقة وطويلة ، وأنه متعب جدًّا وسيسعد جدًّا عندما يصل إلى «ليبياهل» . وهنا بدأ «زخريا» يقص قصة «جريزى راى Greasy Wray » المحامى السريفى

من بلدة « زبلون » والذى عينه « زخريا » قاضياً متجولاً ، عندما كان حاكماً فى الولاية . ففى يوم ما تسلم « جريزى » الأوامر بعقد جلسة فى بلدة « هارنجتون Harrington » وهى بلدة ساحلية ، وكان « جريزى » هذا لم يغادر « زبلون » من قبل . كانت « هارنجتون » بلدة ساحلية تبعد ٤٠٠ ميل عن « زبلون » ففرح « جريزى » فرحًا شديدًا لهذه المهمة ، فقد رأى فيها فرصة ليرى الكثير من الدنيا ، وخرج من « زبلون » على ظهر جواد إلى « ليبياهل » ، ومنها ركب العربة الى « ميلرتون » ، ثم أخذ القطار إلى « اكستر » ، ثم إلى « دوفر » ، ثم بقطار آخر إلى « ساندرسون » عن طريق « بلمونت » ، وبعد ثلاثة أيام من السفر الشاق وجد المركب فى انتظاره فصعد إليها وقصد قمرة لينام ، وما إن رقد على السرير حتى نام فى الحال وأفاق فى اليوم التالى ليجد أن المركب قد ألقت مراسيها ، فقد وصلت آخر رحلتها ، وعلى الشاطئ رأى جمعًا من السود فنزل واستأجر عربة وطلب من الحوذى أن يذهب به إلى الفندق . ثم طلب من موظف الفندق أن يرسل فى طلب « الشريف » فى الحال . وبعد ربع ساعة كان « جريزى » يرحب بالشريف فى غرفته بالفندق ، ثم قال للشريف : (أنا القاضى « جريزى » من « زبلون » جئت إلى « هارنجتون » لعقد جلسة المحكمة) ، مرت فترة من الوقت لم

يستطيع خـلالها الشريف الكلام لفرط دهشته ، ثم تمالك نفسه وقال : (يا رجل هذه البلدة ليست « هارنجتون » إنها « بلتيمور ») . كانت هذه القصة من القصص الأثيرة عند « زخريا » ، وكان يرويها بلذة كبيرة . وانطلق يروى قصة بعد قصة كل هذا والعربة تجاهد فى تسلق الطريق ، وقبل أن تصل العربة إلى « فتحة ريدجبول » أى آخر انحناءات الطريق ، وقبل الوصول إلى القمة هبطت العجلات فى حفرة وكادت المرأتان تصطدما الواحدة بالأخرى ثم عادت العربة إلى الإسراع حتى وصلت إلى ريدجبول ، وهناك هبطت السيدتان وانطلقت العربة لتتم رحلتها .

شعر « زخريا » بحرية فى الحديث فأخذ يحكى دون تحفظ حكاياته المكشوفة وغير المكشوفة ، وفجأة سأل « فيبر » : (أين ستكون إقامتك عندما تصل إلى البلدة ؟) فأجاب الرجل : (فى الواقع لا أدرى ، ولكن لابد أن يكون هناك فندق أو ما شابه ذلك) فقال « زخريا » فى جد : (أما أنا فمعتاد النزول لدى عائلة جوينر) فسأله « فيبر » فى حرارة : (وهل هذا مكان مريح) فقال « زخريا » : (نعم فمعروف عن « مدام جوينر » أنها من أحسن الطاهيات فى هذه المنطقة وعلاوة على ذلك فإنها ....) ، وهنا نظر « زخريا » حوله فى خبث ، ثم مال إلى

الأمام وربت على ركبتى « فيبر» وقال : (كما أنها امرأة ذات جمال لا بأس به والحقيقة ....) وهنا أخذ ينظر حوله مرة أخرى ثم قال : (عندما أنزل عندها فإنى عادة أنام معها) كان هذا القول فاضحاً وفاحشاً . إذ ظهرت على إثره علامات الدهشة والامتعاض على وجه « فيبر » ، وهنا لم يستطع « زخريا » من حبس ضحكه ، فانفجر فى سلسلة من الضحك شاركه فيها « روبرت » شقيقه والحوذى ، ثم قدم نفسه إلى « فيبر » .

لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى وقع للعربة حادث . فعندما وصلت العربة إلى مرتفع صغير عنده تعبر العربة شريط السكة الحديد قابلتها عربة لنقل الأتربة ، وكادت تعترض طريقها ففزعت الخيل وجفلت ، فضربها الحوذى بسوطه ضرباً شديداً ، فاندفعت بأقصى سرعة على منحدر الطريق فتمايلت العربة ، وكادت تنقلب إلا أن « زخريا » اندفع خارج العربة وسقط على الأرض حيث ارتطمت رأسه بحجر ، فلما وقفت العربة ، ووصل « فيبر ، وروبرت » إلى مكان « زخريا » وجدا أنه أصيب فى رأسه ووجهه بعدة جروح وكدمات ، ففتحا قميصه وياقته وهزا يديه وصاحا به ، ولكنه لم يتحرك أو يرد ، وهنا ظن « روبرت » أن أخاه قد مات ، إذ لاحظ أن جفنيه مقفولتان إلى النصف ومقلتيه ككرة من الزجاج . وفى الحال عاد « فيبر » إلى العربة ، ثم

تحدث إلى الحوذى ، ثم فتح صندوقاً وأخذ منه زجاجة ففتحها ، ثم مال على « زخريا » وأدخل عنق الزجاجة بالقوة بين شفتيه ثم سكب ما كان فيها فى حلق « زخريا » . وعلى أثر ذلك أفاق « زخريا » . ويصف «روبرت» (فيما بعد) فيقول : (لو أن « فيبر » قد سلط على مقعد شقيقه « وابور الحام » لما كان تأثيره بهذه السرعة) ، لأن « زخريا » لم يقف على قدميه فحسب ، بل قفز واقفاً وطار فى الهواء ، كما لو أنه أطلق من فوهة مدفع برغم ضخامة جسمه ، وهكذا وصل « جون فيبر » إلى البلدة .

وصلت العربة إلى «ليبياهل» وراح «روبرت» يقص على أصدقائه ما وقع لهم فى الطريق فانتشرت القصة بين الأهالى بسرعة ، واشتهر « فيبر » تحت اسم (الرجل الذى أشعل النيران فى مقعد «زخريا») وكان هذا الحادث سبباً فى زيادة التقارب والاحترام بين « روبرت ، وزخريا » من جهة ، وبين « فيبر » من جهة أخرى . وبالرغم من مظهر « فيبر » الخشن إلا أنه كان إنساناً عزيز الكبرياء لم يخجل مرة من هذا المظهر . كما لم يكن مغروراً بينه وبين نفسه ، فلم يحاول مرة خداع نفسه . كان فى مقدوره الرد على من يوجه الإهانة إليه كأى رجل ، ولكنه لم يحمل فى نفسه أبداً حقداً . كان يتقبل الدعابة والنكات التى تقال عنه ببساطة وبراءة ، وكان يستطيع الرد عليها بالمثل ، ولكن الشىء

الجميل فيه أنه تقبل هذا المظهر الخشن بدون حساسية ، فكان دائماً يقول (أنا لا يعنيني المظهر ولم أشك من قلة نصيبى منه ، ولكننى والحمد لله قد منحت قوة البدن وهذا من حظى الحسن ، ذلك لأنى كنت دائماً مضطراً للاشتغال لأكسب قوتى منذ كنت فى الثانية عشرة من عمرى ، فلقد أخذت نصيبى من اللكمات لأحصل على نصيبى من العمل الشاق) ، هكذا كان يحس الرجل فى قرارة نفسه بالشىء الذى فقده الكثير من الناس . هذا الشىء هو احترام النفس . كان « روبرت » دائماً يقول (لو أن « فيبر » رجل متعلم لاستطاع أن ينطلق فى العالم كله لقد كان يستطيع أن يكون محامياً) استمع « إدوارد » (ابن « روبرت » الوحيد) إلى هذه الكلمات أول مرة ، ولم يكن قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، وكغيره وككثير من الصبية لم يهتم كثيراً بالمحاماة وبالقانون ، وإنما كان اهتمامه موزعاً على عدة أشياء أخرى منها السيرك ، فلقد شاهد « إدوارد » السيرك لأول مرة فى حياته ، بعد وصول « جون فيبر » إلى البلدة بستة أشهر ، كما قابل « فيبر » وقتئذ لأول مرة . والعجيب فى الأمر أن فكرة السيرك « وفيبر » قد اندمجتا فى ذهن إدوارد منذ ذلك الوقت ، فلم ينس المساعدة التى قدمها «فيبر» إلى السيرك عندما جاء إلى البلدة .

وقد اقتنع « إدوارد » تماماً - مثل أبيه - بأن المستر «فيبر»

يستطيع إذا أقدم على عملٍ ما أن يتمه ، ويتمه على أحسن وجه أيضًا . وقد جاء الحدث الكبير عندما وصل إلى البلدة السيرك فقد وصل عبر الجبال فى عرباته الضخمة من مدينة « ميلترون » ولم تكن السكة الحديدية قد استكملت بعد من «فيلترون» إلى «ليبياهل» وكان فى السيرك فيل اسمه «جامبو Jumbo » ساروا به فى الشوارع كما فعل « هانيبال » عبر جبال الألب ، ومازال « إدوارد جوينر » يذكر هذا الرجل الذى ركب على رأس الفيل وسار به فى الشوارع .

ثم جاء الربيع وأخذت الثلوج فى الذوبان وفاض النهر على جانبي الطريق . فلما جاءت العربات الكبيرة التابعة للسيرك لم تستطع السير بسبب الأوحال ، وحاول رجال السيرك دفع العربات بعيداً عنها ، ولكن دون جدوى بسبب ثقل هذه العربات وانغماس عجلاتها فى الطين . فأرسلوا فى طلب مقاول عمال . وكان لدى « فيبر » مجموعتان من البغال الرمادية اللون يستخدمها فى عمليات الجر . فأجرها لرجال السيرك وسار معها لمراقبة طريقة استخدامها .

كان يوم أحد وكان الجو صافياً عقب أسبوع ممطر . لقد كان أجمل أيام شهر أبريل خرج القاضى « روبرت جوينر » ومعه ابنه « إدوارد » فى عربة للتنزه ناحية السيرك . فلما وصلا إلى مكان

السيرك وجد الابن المكان مكتظًّا حتّى خيل إليه أن كل فرد فى البلدة حضر إلى هذا المكان ، كما شاهد أن جزءًا من موكب السيرك قد أمكن إزاحته بعيداً عن الوحْل ، وأن الجزء الباقى مازالت عرباته فى الطين ، ورجال السيرك من حول العربات يسبون ويلعنون ، بل ويضربون الخيل بالسياط ولكن دون جدوى ، وفى هذه اللحظة وصل « فيبر » من ناحية البلدة راكباً عربة محملة بألواح من الخشب يجرها أربعة بغال . كانت هذه أول مرة يرى فيها « إدوارد » الصغير مستر « فيبر » .

ظهر « فيبر » على مسرح الحادث وكان مظهره غريباً ، حتّى أن الناس جميعًا بدءوا يتضاحكون وقال أحدهم : (إنى أعرف أن السيرك يملك فيلا ، ولكن لست أدرى من فتح قفص القرود) فضج الجميع بالضحك ، وقف « فيبر » فوق العربة المحملة بالأخشاب وكان فعلاً مظهره يتناسب وملاحظة الرجل السابقة . فبرغم أن طوله فوق المتوسط (خمس أقدام وعشر بوصات) إلا أنه يظهر لمن يراه أنه أقل من ذلك بعدة بوصات ، وذلك بسبب أن جسمه ينحنى إلى الأمام قليلاً ، وساقيه منفرجتان إلى الخارج قليلا ، وقدميه كبيرتان ومفلطحتان ، وجسمه القوى البنيان مستدير كالبرميل ، ويداه طويلتان كيدى الغوريلا ، ورقبته الغليظة غاطسة بين كتفيه ، وشعره الأحمر

طويل يتدلى حتى عظام الخدين ، ويكسو عينيه حاجبان كثيفان ملفتان للنظر ، وأنف قصير مدبب ، ولكن العجيب فى الأمر أن قسمات وجهه دقيقة ورقيقة بالقياس إلى جسمه الضخم .

وكان الناس يتضاحكون ولكنه لم يلتفت إليهم وألقى بنظره على المكان وهبط من العربة وصاح فى أحد رجال السيرك : (ابعد خيلك عن الطريق) فنفذ الرجل الأمر فى الحال ، ثم أمره مرة ثانية بأن يحضر ستة من رجال السيرك ليساعدوا فى إنزال الألواح الخشبية ، وفى لحظات تم إنزال الألواح ، وضع « فيبر » الألواح تحت العربة ثم شد إليها طقم البغال فنجحت فى سحب العربة بعيدًا عن الطين ، وهكذا عربة بعد عربة حتى أخرجها جميعًا إلى الأرض الجافة . وبعد أن أتم المهمة سار فى هدوء نحو العربة التى يجلس فيها القاضى وابنه وتحدث إلى القاضى بعض الوقت . فلاحظ « إدوارد » الصغير أن « ملابس الأحد » قد لطخت بالوحل وكذلك يديه الغليظتين ، أما « فيبر » نفسه فلم يلاحظ ذلك . إنه يقف هادئاً كما لو كان هذا الحادث أمر عادى مألوف . لم يذكر « إدوارد » من الحديث الذى دار بين « فيبر » والقاضى سوى ملاحظة أبيه عن حالة الطريق السيئة انصرف الرجل ، كما عاد « روبرت » وابنه إلى المنزل وفى الطريق قال القاضى لابنه إن مستر « فيبر » رجل عظيم .

مر شهر أو شهران قبل أن يراه « إدوارد » مرة أخرى . كان هذا فى يومٍ ما فى حوالى التاسعة صباحا عندما كان « إدوارد » خارجاً من المنزل فرأى المستر « فيبر » يتحدث إلى والده فى ساحة البيت . فسمع أباه يقول : (والآن يا مستر « فيبر » أفكر فى أن يكون البناء مكوناً من حجرتين فقط ، واحدة للكاتب أو للزائرين ، والأخرى لاستعمالى الشخصى ، أفكر فى أن أبنى هنا ، وأشار إلى الركن البعيد عن الساحة) ثم أضاف : (وستكون مساحة البناء عشرين قدماً طولاً وحوالى مثلها عرضًا . إنى لا أريد مبان فيها ترف وسوف لا أستقدم مهندساً لعمل الرسم ، فلقد رسمته بنفسى وأظن ذلك كافياً جداًّ . إن كل ما أريده شىء رحب وعملى ، ويهمنى أن أعرف تقديرك للتكاليف) فسأله « فيبر » : (أى المواد ستستعمل ؟) ، فدهش القاضى من السؤال كأنه لم يتوقعه ، ثم نظر فى حيرة إلى المنزل وأجاب (شيئاً من هذا القبيل) ، (ألا نستعمل الخشب . خشب الصنوبر مثلا ؟) فرد « فيبر » فى حزم : (كلا يا سيدى سوف أستعمل الطوب) ، فقال القاضى مندهشاً « بالطوب » فقال « فيبر » بالطوب لأنه لا يكلف أكثر من الخشب ، فضلا عن أنه يحفظ الدفء فى الشتاء والبرودة فى الصيف ، كما أنه سيعيش خمسين أو مائة سنة ، أنا لا أفضل الخشب فأنا لا أستحسن المنازل الخشبية . إنى

يا سيدى من « بنسلفانيا » إنهم يعرفون كيف يبنون ، ولديهم مخازن للحجارة التى تصلح للبناء وتعيش أطول من أى منزل عندكم ، وفى رأيى أن مادتين فقط تصلحان للبناء ، بالحجارة والطوب ، فاقتنع « روبرت » بالفكرة ، وما إن جاء الصيف حتى كان البناء قد تم وانتقل روبرت إليه .

منذ ذلك الوقت ارتبطت صورة مستر « فيبر » فى ذهن إدوارد بالطوب وبالبناء ، ومنذ ذلك الوقت أيضًا أخذ شكل المدينة يتغير ، لقد كان « فيبر » السبب والوسيلة فى هذا التغيير . فلو أن عبارة كتبت على قبره لما كان هناك أفضل من هذه العبارة :

(هنا يرقد رجل وثق فى الطوب) .

الفصل الثامن

بعث الحياة

من الطبيعى أن تتعدل وجهة نظر « إدوارد » بالنسبة للأشياء وللأشخاص كلما مر به الزمن ، ونضجت أفكاره بسبب سلسلة التجارب التى تكون قد مرت به فى حياته .

ولكن لم يكن هذا التعديل وهذا التحول فى التفكير قد وقف عند « إدوارد » فحسب ، بل شمل البلدة كلها ، لقد جاء جون « فيبر » إلى ليبياهل عند بداية هذا التغيير ، إذ بدأ القديم يترك مكانه للجديد خاصة عندما ظهر فى البلدة أشخاص جدد ووجوه جديدة ، فتبدلت أفكار الناس وتغيرت نظرتهم إلى الأمور ، لقد تبدلت النظرة عندما أقامت البلدة صلات مع العالم خارج البلدة ، وكان قدوم « فيبر » فى هذه الآونة ، لذلك نراه قد

شارك هو نفسه فى إحداث هذا التحول ، لذلك راح « إدوارد » يعتبر « فيبر» تجسيداً لهذا التغير .

كلما رجع « إدوارد » بذاكرته إلى أيام طفولته كان يرى هذا الخط الذى يفصل بين عهدين واضحاً فى ذهنه (عهد ما قبل « فيبر») ، (وعهد ما بعد « فيبر») . فالحياة أيام ما قبل « فيبر» كانت ألوانها تختلف كلية عما هى الآن ، وكان « روبرت » يكن لزملائه فى السلاح حباً شديداً بالرغم من كراهيته للحرب . لقد تغيرت أفكاره هو الآخر ، فمنذ ستين عاماً وحين كان إدوارد طفلاً كانت ليبياهل بلدة صغيرة ، لا تزيد عن كونها قرية عند مفترق الطرق ، يسكنها عدد قليل من الناس جاء أغلبهم إليها منذ وقت قريب . أما المستعمرون القدامى فقد كانوا قلة يعدون على الأصابع ، كما لم تفد عائلات قبل عائلة « إدوارد جوينز » ، وإن كان بالمدينة ست عائلات قديمة فى قدم عائلته مثل عائلة : « بلاند Bland » ، وعائلة « كنيدى Kennedy » ، و « دونكان Duncan» ، « وأونبى Owenby » ، و « ملنتير Melntyre» ، «وشبرتون Shepperton» ، وفى هذه الآونة لم يكن بين السكان أى غريب عن البلدة ، فأغلبهم إن لم يكونوا كلهم ، إما من أهل المدينة نفسها ، أو على الأكثر من أهل المنطقة ، أى أن

٩٠٪ منهم قد ولدوا فى منطقة لا يزيد طولها عن ٤٠ ميلاً فقط ، وعندما صار « إدوارد » غلاماً كانت آثار الحرب الأهلية ثقيلة وماثلة للأعين ، « فروبرت » نفسه كان جندياً واشترك فيها وكان له كثير من الزملاء فى السلاح اعتادوا على زيارته فى منزله ، وتعرف عليهم «إدوارد» الصغير ، وكان « روبرت » يحبهم كثيراً برغم كراهيته للحرب وشدة تحفظه فى ذكر دوره فى الحرب ، والمعروف عنه أنه لم يتناول أحدًا منهم مطلقاً بالنقد أو التجريح ، فى حين كان بعض زملائه من الجنود ينقدون بعض قادتهم فيما كانوا يظنونه أخطاءً إستراتيجية ، مثل : الجنرال « هوكر Hooker» ، فى معركة «شانسلرفيل Chancellorsville» ، أو الجنرال « إيول Ewell » ، فى معركة « جتسبرج Gettysburg» ، أو القائد « ستيوارت Stuart » فى إغارته على «بنسلفانيا» ، وحتى الجنرال «لى » ، لم يسلم من النقد والحكم عليه من الناحية العسكرية برغم أن اسمه كان مقدسًا ، وفى أثناء الجدل والحوار الذى يدور فى مثل هذا اللقاء فإن «روبرت» كان يستمع فقط فى هدوء واتزان دون تعليق ، ولم يشذ إلا مرة واحدة يذكرها « إدوارد » عندما عبر « روبرت » عن رأيه فى حماس وجرأة عن سير الحرب . عندما كان الجنرال « جوردون Gordon »

يتحدث عن « جتسبرج » (وقد كان « جوردون » هذا صديقًا حميماً « لروبرت ») ولكن « روبرت » استدار له واحتقن وجهه المربع وقال : (لقد كان فى استطاعتنا أن ، نكسب . كان من الممكن أن نربح الحرب) ثم غمغم قائلاً : (لكن الواقع أننا كنا لا نرغب فى ذلك) ، فنظر إليه « جوردون » فى عجب وهم أن يرد عليه ولكنه آثر أن يغير الحديث .

لقد استمع إدوارد إلى مئات من المناقشات – خاصة عندما كان صبيًّا – وكان الجنود يأتون لزيارة أبيه ، ومن آن لآخر كان يرى كثيراً من القادة (الجنرالات) عند والده أمثال « بتيجرو Pettigrew ، وماكلوس Maclows ، وإيفرسن Iverson، وهيث Heth ، وجانكنز Jenkins ، وهود Hood وجون ب . جوردون » وهذا القائد الأخير « جوردون » الذى كان مثلاً رائعاً للإقدام والعطاء ، حتى لقد احتلت صورته فى خيال « إدوارد » رمزاً لما يجب أن يكون عليه الرجل والجندى .

لقد كانت هذه المناقشات وهذا الحوار تجربة وأحداثاً عظيمة بالنسبة لهذا الطفل ، إذ كان يجلس أمامهم مبهوراً ، وقد حبس أنفاسه طوال أحاديث هؤلاء الشجعان ، كانت أحاديثهم تفوح منها الروائح العطرة ويرى ويسمع من خلالها الأصوات والصور الرائعة . كصـورة الجنرال « جويل إيريل

« Jubal Early » وهــو ممتطياً صهوة جواده على مشارف واشنجتون ، والجنرال « استيوارت » وهو يدق بأقدامه طرق « بنسلفانيا » ، أما عن الروائح فرائحة عرق السروج الجميلة وجلودها ، وكذا رائحة البخار المتصاعد من الفرسان ، ورائحة زهرة التفاح وهى تحيط بالجنود ، ورائحة الكافور ، ورائحة مزارع القمح فى « بنسلفانيا » ، ومزارع الذرة فى « ميريلاند » ، ومزارع الشعير فى « فرجينيا » ، ورائحة أشجار القار فى وادى « شيناندوه Shenandoah » فى أثنـــاء فصل الربيع ، وتعلو على تلك الروائح جميعًا رائحة المعارك الطاحنة ، ورائحة طلقات البارود من البنادق ومن المدافع ، وكذا قصف المدافع والقنابل الزمنية والقنابل العنقودية والألغام ، يرى « إدوارد » ويسمع كل هذا من خلال أحاديث هؤلاء الشجعان ، ويشعر بالحرب ويستنشق هواءها ويتذوق طعمها ، ولا يرى فيها سوى الفخار والبطولة ، ولا يحس الحزن أو الأسى الذى يقطر من حديث هؤلاء القواد ، لم يحس الفشل والهزيمة .. والأسف المرير ، كما لم يحس معنى التكرار المستمر والمليء بالمرارة بكلمة « لماذا » كانوا يتساءلون فى إصرار « لماذا ؟ » لماذا ترك بعضهم الجناح الأيسر مكشوفاً برغم ما جاءته من أخبار كافية عن ضغط مشاة « هانوك » من خلف الغابة ؟ لماذا كانت هناك مسافة تفصل بين طابور بعضهم وخط

المؤن ؟ لماذا تأخر بعضهم من الساعة الحادية عشر والنصف صباحاً حتى الثانية والنصف بعد الظهر ، تأخروا فى الهجوم على عدو منهك القوى ؟ لماذا لم يستول بعضهم على الهضبة فى الحال ، وهو يعلم أنها غير محمية ؟ .

ويسأل « جوردون » فى حدة وانفعال : لماذا توقف « جيبل إيريل Jubal Early » عن إصدار أوامره بسحق قوات « هانوك » التى كانت فى حالة إنهاك تام وتقطعت أوصالها ، كما تحطمت روحها المعنوية ولم يبق منها سوى فصيلة واحدة متماسكة ؟ لماذا امتنع عن أن يتم هجومه وكان انتصارنا قريبًا ، وسمح للعدو أن يجمع قواته المبعثرة فتحول النصر العظيم إلى هزيمة منكرة . وقامت معركة ، لماذا ؟ وإذًا ! ! وهى رثاء الرجل المهزوم إذا لم يفعل ما فعله ، وإذا لم يذهب إلى المكان الذى ذهب إليه ، وإذا رأى ما رآه الغير ، وإذا صدق ما قاله الآخرون ، وإذا كان يدرى ما يعرفه الآخرون ، وإذا لم يتلكأ وفعل كما فعل الآخرون فى الحال . نعم إذاً (كما يقول « زخريا جوينر» بسخرية لاذعة) كان الرجال آلات وليسوا أطفالاً كبارًا ، وإذا كانوا عرافين أو أنبياء وهبوا التنبؤ وبعد النظر ، وإذا كان شخص ما ، ولم يكن فى المكان الذى كان فيه وباختصار إذا كان لحم الإنسان غير لحمه ، وعقله غير عقله ، وطبيعته ومشاعره

وأفكاره وأخطاؤه ، غير تلك التى يمتلكها ، هنا فقط سوف لا تكون هزيمة أو انتصار أو حرب .

أما الصبى « إدوارد » فقد شعر من حديث هؤلاء القواد أن الحرب إثارة وعظمة ، ولم يحس فيها بالآمال المعقودة أو الندم القاتل ، فهو لا تهمه أحزانهم ولا ندمهم ، فالقواد فى نظره رجال عظماء ، ربت فيهم الحرب غير الإنسانية ، حب الإنسانية والموت على أرض المعركة ، وولّدت فيهم شعوراً عميقاً وقوة بالأبوة وإحساساً بالمسئولية ، وعدم الخوف والرهبة من الموت أو الحياة ، والرأفة والرقة والعطف بالرجل والطفل وبكل الأحياء . لقد سمعهم يتحدثون عن أخطاء غيرهم ، كما سمعهم يتحدثون ويعترفون بأخطائهم ، وأنهم يشتركون فى معارك نقد ومناقشات حامية ، ولكن دون ما سباب أو مهاترة ، لقد كانوا رجالا طيبين . كانوا يحسون الأسى على المفقود الذى لا يمكن إعادته ، وكان حزنهم هو الحزن الدفين على الماضى ، ولكن ليس فى قلوبهم أى شعور بالكراهية .

تخيل الصبى أنهم عاشوا على مدى عدة سنين حياة جميلة ، لقد رآهم وسمعهم يتحدثون عن كل شىء كما قرأ لهم كل ورقة كتبوها (مذكرات وذكريات وسير شخصية ، وتجاربهم فى الحروب ، ومناقشاتهم الفنية عن المعارك والمواقع الحربية

والأخطاء الإستراتيجية ، والمناورات ، وانعكس اهتمامه هذا على حياته الدراسية ، فكان متأخراً فى دراسته . فمعرفته بقواعد اللغة ضعيفة ومهلهلة ، ومعلوماته فى مادة الجبر لا تستحق الذكر ، وكذلك فى اللغتين اللاتينية واليونانية ، ولكن إذا ما تحدث عن المقدمة والمؤخرة والجناحين والكر والتقهقر ، فإن موسوعته فى الحرب (كما أقر بذلك فيما بعد) فإنه ينساق فى أحلامه ، ولعدة أيام بأكملها ، حتى أنه لا يحس بما يدور حوله ، فيتخيل حرباً يقوم هو فيها بالدور الهام ، حرب يطبق فيها تكتيكاته هو وإستراتيجيته هو ، بحيث يتم له النصر دائماً ، فهو دائماً المنتصر الذى لا يخسر معركة ولا يقع مطلقاً فى أى خطأ فنى .

فيصور له عقله أدواراً وانساق مع خيال صوره له عقله المنتشى بخمر الحروب ، فكتب تاريخا تعززه المستندات والتى صيغت بعشرات الطرق والوسائل ، إذ تضم فى مكر ودهاء الملامح المثيرة التى دونها أساتذته ، مثل القرارات الحازمة والتحليل الفنى للجنرال « دوبلداى Doibleday» والبلاغة الحماسية للجنرال «جون جوردون» وما قرأه «لموليير ، وشيكسبير» . فأخذ الصبى ما أراده من هذه القراءات ثم أضاف إليها وحسنها كما فعل السالفون (المتقدمون) .

المنظر من جهة اليسار كان مثالاً للفوضى التى لا توصف .

الجنرال « إيرلى Early » لا يهتم بتحركات الجنرال « هانكوك » التى قام بها فى الصباح ، لقد أخطأ فى ذلك ، إذ وضع نقطة حراسة صغيرة على اليمين وإلى الخلف تمركز طابور معاون على حافة الغابة ، وبدأ الهجوم وفى تلك اللحظة وبحركة سريعة مباغتة اندفعت قوات الشمال ، وتبودلت النيران وسقط الجناح الأيسر ، كما تسقط الورقة وتقهقر إلى الوسط ، وهنا اندفعت قوات الفرسان تحت قيادة « هاى Hay » وخرجت من الغابة ، وهاجمت الخطوط التى أصيبت بخسارة فادحة ، واكتمل الحصار ، وفى هذه اللحظة التفت الجنرال « لى » إلى هذا الضابط الشاب النابه ، وكان هذا الضابط هو الوحيد من بين ضباط « لى » الذى حكم على خطورة التحركات التى قام بها رجال « هانكوك » فى داخل الغابة ، وقال له يا جنرال « جوبنر » (ولم يكن يقصد سوى « إدوارد زبلون جوبنر » الشهير ، وهو أصغر ضابط فى جيش الاتحاد وكان قائداً للفرقة الحديدية الشهيرة ، كما كان أحسن ضابط فى الإستراتيجية والتكتيك الحربى فى كل جيوش « فرجينيا » ياجنرال « جوبنر » هَلْ تستطيع أن تستولى على هذا الموقع أنت ورجالك ؟ قالها الجنرال « لى » وهو يشير إلى الغابة . ظل الضابط الشاب متردداً لفترة قصيرة وظهرت فى عينيه سمة من الحزن العميق ، وعلى قسمات وجهه

الوسيم ظهرت معالم الشفقة لأنه كان يعلم مدى فداحة الثمن الذى سيدفعه من رجاله ، لكى يتم هذه المهمة بنجاح ، هؤلاء هم رجاله الشجعان الذين أحبهم وأحبوه ولكن .. ، لا بأس مهما كانت الأخطار والخسائر فعليه أن يصحح الخطأ الذى وقع فيه الجنرال « إيرلى » .

فى الصباح . وفى شجاعة الواثق نظر إلى الجنرال « لى » وأجاب فى حزم : نعم يا سيدى أعتقد أن هذا الموقع. يمكن الاستيلاء عليه والاحتفاظ به أيضًا ، فقال الجنرال « لى » إذاً هل تظن أن هناك حلاً لنا سواه ، وجاء رد الضابط دون تأخير ، رداً سريعًا ومدوياً كالطلقة : نعم أعتقد ذلك . فصمت الجنرال « لى » لحظة وعندما تكلم كانت نبرة من الحزن تشيع فى كلماته : إذاً يمكنكم الهجوم .. وفى التو أعطى الضابط الشاب أمره لرجاله بالهجوم وبدأ الهجوم الكبير .

هذا نموذج مما كتبه « إدوارد » فى الثمانينيات من القرن الماضى ، فلقد رأى هذه الأحداث بعين خياله مكتوبة فى مجلدات ، بل كتب منها عدة رزم من الأوراق .

من أشق اللحظات التى مرت به لحظة أن عاد إلى المنزل ورأى والده جالسًا إلى مكتبه وهو يقرأ مجموعة من هذه الأوراق . لقد كان الصبى يظن أن سره فى مأمن لا يمكن الوصول إليه .

لأنه كان يضع هذه الأوراق فى درج غير مستعمل ، ولكن الوالد بدون قصد وقع على هذا السر عندما كان يبحث عن أوراق خطابات ، وحين دخل « إدوارد » الحجرة نظر الأب إليه نظرة قصيرة حملت كل معانى الغضب ، ثم عاد واستأنف قراءته .

وجلس « إدوارد » بعيداً تعساً وهو يراقب أباه حين يفرغ من قراءة صفحة تلو الأخرى ، وقد جلس الأب إلى المكتب وقد أدار ظهره العريض لولده وقد لمعت صلعته نتيجة للضوء الهابط عليها ، فلا يظهر من رأسه سوى رقبته العريضة الحمراء ، وزاوية من فكه المربع ، وجزء من وجهه المحمر ، أما الصبى فبرغم أنه لا يرى من مكانه هذا تلك الانفعالات التى ظهرت على وجه أبيه الأحمر ، وهو يقرأ هذه الأوراق ، ولكنه قد رأى بعين خياله تلك النظرات الغاضبة والوجه العبوس المكفهر ، كما لاحظ الصبى أن الرقبة الحمراء تزداد احمراراً والفك منتفخ فى غضب عارم .

ثم أخذ الوالد يتمتم فى صوت أجش ، ولكنه مختنق من الغضب أخذ يتمتم ما يقرأه حتى وصل إلى عبارة ، لم يستطع ولم يقوَ على مجرد سماعها وهى : (عمليات الهجوم على الأجنحة) .

فطوح بالورقة بعيداً ، حتى لقد كادت أن تسقط على وجه « إدوارد » (وابل من النيران دفع الجناح الأيسر بأكمله إلى

الوسط الذى تهادى كالأوراق الضعيفة ... ما هذه الفوضى)
ومرة ثانية قذف بالورقة فى الوجه التعس (... هذا الضابط الشاب
وزهرة فرسان الجيش الاتحادى كان كفيلاً باستراتيجيته وتكتيكاته
وتحركاته المدروسة أن يحرز النصر لولا ....) ، وكان هذا أكثر مما
يطيق الأب فألقى بالورقة على المكتب ، ثم رفع وجهه المربع
وصاح كالمستغيث « يا إلهى هل هناك إنسان قرأ مثل هذه الأوراق
من قبل ؟ ثم تحامل على نفسه وعاد للقراءة وفى بطء وإصرار ،
قرأ كل الأوراق حتى آخرها ، وأخيراً جمع تلك المخطوطات بين
أصابعه الغليظة ، ثم رتبها فى عناية وأعادها إلى الدرج الصغير
الذى كانت فيه . ثم ران الصمت لفترة قصيرة وفى غضب شديد
استخرج من جيبه (ورقة يدل مظهرها على أنها قد طويت فى
عنف وقسوة من قبل ثم بحث فى جيبه ثانية واستخرج منه مفتاحاً
صغيراً فقفل الدرج ثم استدار فى كرسيه وواجه ابنه) . وكان
منظره الغاضب كافياً ليوقف نبضات قلب ولده ، ثم فتح الورقة
ونشرها بعناية فائقة بأصابعه وقدمها لولده (هذا هو تقرير
دراستك جاء اليوم ، فإن من بين انتصاراتك فى الدراسة
لاحظت أنك حصلت على ٤٢ درجة فى مادة التاريخ) ثم
انتصب واقفاً وهو يتنفس فى صعوبة وخرج من الحجرة .

لم يحدث بعد ذلك أن تحدث مرة أخرى طوال هذه القصة

مع ابنه ، لقد كانت من أهم صفات هذا الرجل أنه كريم وشهم . فإذا ماعنف شخصاً وألقى إليه بكلمات جارحة ، فإنه لا يحمل له فى نفسه أى حقد أو ضغينة بعد ذلك ، وكأن كل شىء انتهى وأصبح ماضياً . ولكنه شعر بالقلق الشديد بسبب تمسك وتعلق الولد بالحياة العسكرية ، حتى أن الصبى حين بلغ الرابعة عشرة من عمره ، كان لا يخفى رغبته فى الالتحاق بالكلية العسكرية فى الوست بوينت West Point » وبالرغم من أن القاضى كان يبدى استهزاءه لهذه الفكرة ويقول : (الأفضل لك أن تبحث عن عمل آخر تكسب منه قوتك ولتصبح مواطناً صالحاً) إلا أنه شعر بانزعاج شديد فى داخل نفسه ، ففى الحقيقة أن القاضى كان يفضل ألف مرة أن يختار ولده أى عمل غير الجندية ، فهو يكره الحرب بطبيعته ، لقد قال روبرت : (إنها ليست حياة التى يعيشها الجندى . إنها الموت . ولكن فى الحروب نجد أحسن الناس ، أنا على يقين من ذلك ، لأنى اشتركت شخصياً فى الحرب . لقد ذهبت إليها لأنه كان واجباً علىّ ولقد قابلت أفضل الناس والسبب فى ذلك ، أن خير الناس هم فقط من يذهبون للقتال . الحرب لم تكن السبب فى كونهم فضلاء ، فهى أفسد وأقذر شىء اخترعه الإنسان والشيطان معاً ، لقد قال «شيرمان Sherman» إن الحرب هى الجحيم ،

وهذا خطأ فالحرب أسوأ من الجحيم فهى الموت ، وسكت فترة قصيرة ثم استطرد فى الحديث وقد احمر وجهه وقال « إلى الجحيم فليذهب إلى الجحيم إلى الموت) .

أصر ابنه فى إلحاح وجدية الشباب فى مميزات الحصول على «تعليم جيد» ، إذا التحق بكلية «الوست بوينت العسكرية » ، فضلاً عن أن التعليم بها بالمجان ، وحتى إذا التحق بها وتخرج فيها ضابطاً ، فقد لا تقوم حرب . وهنا قال القاضى « روبرت » فى سخرية : (وهذه ستكون حياة جميلة أليس كذلك ؟) ، ثم أضاف : (إذا كانت هذه هى القيم التى تحتويها حياتك ، فالأفضل أن ترمى بهذه الحياة من أعلى جبل « ميتشيل Mitshell » ، وتتخلص منها) فاضطرب الصبى وقال فى دهشة : « لماذا ؟ ! » وماذا تعنى بذلك !! فهز الأب رأسه مرات عديدة وقال : (إنى أقصد بأنك ستقوم بعمل جليل ومفيد لنفسك ولوطنك بثمن قليل . فالجندى وقت السلم لا يستحق هذه التسمية . نعم .. ، فقد تقابل رجالاً عظماء فى وقت الحرب ، أما فى وقت السلم فلن ترى سوى جنوداً من القصدير) ، كانت السخرية بادية فى كلماته (جنود من قصدير) . لم يكن هناك رجل أكرم وأعدل منه حين يتحدث عن زملائه فى الحرب ، ولكنه كان كما كان أخوه « زخريا » يحتقر

أشد الاحتقار كل من يدعى البطولة فى الحرب كما فعل أخوه « تيودور Theodore » وكان « روبرت جوينر » يغضب جداً حين يرى أن التجارب القاسية التى مر بها الناس وقت الحرب لم تعلم الكثيرين منهم ، لقد كان يراقب الناس فى سلوكهم وتصرفاتهم بذكاء وخبرة ، وكان يلمس ما بهم من ضعف قاتل بسبب قدرتهم على خداع أنفسهم بالعودة إلى رومانسية الأساطير أما هو فكان شخصية عملية متفائلة ونابعة أساساً من جوهر أخلاقه التى لا تستكين إلى الهزيمة أو تركن لها ، إنه كان من طراز الرجال الذين إذا احترقت بيوتهم فيبادرون فى التو فى إقامة غيرها ولما تبرد نيران منازلهم الأولى .

وما إن انتهت الحرب الأهلية وسلمت جيوش الجنرال «لى» حتى كان « روبرت » قد فرغ من إعداد خطط المستقبل ، فهو يعرف جيداً ماذا سيفعل ، فلما عاد إلى قريته بدأ فى الحال فى إعادة بناء حياته ، ومنذ ذلك الوقت لم يتوقف لحظة عن العمل .

قال « روبرت » مرة لابنه : (إذا كان هناك عمل يجب أن تؤديه قد تتلكأ فى الانتهاء منه) هذه هى مشكلة الجنوب ، وإنى لأرجو أن تكون الحرب قد خلصتنا من هذا الغباء .. ولكن للأسف فإنك ترى ماذا يعم الآن ، الله أعلم ما كانت عليه الحال قبل الحرب فروسية مزيفة — كفرسان « سير والتر سكوت » —

ولوردات مزيفون ، وسيدات مزيفات ، ومثل عليا للشرف مزيفة ، كل شيء كان مزيفاً . فانظر الآن ماذا جرى لنا . إنى أتعشم أن تكون الحرب قد محت النفايات التى كانت تملأ رءوسنا ، وأن ما تحملنا من ضربات قد أيقظت ضمائرنا من ثباتها وفتحت عقولنا ، وأن نبدأ حياة جديدة بصفحات جديدة هذا هو همنا الآن وهذا أهم أمر لنا الآن يابنى ، ثم ضرب بيده الغليظة على المكتب صائحاً : (استعد وابدأ . هذا ما يقلق بالنا ، بل بال أغلبيتنا . لقد كان فى الإمكان أن تصبح هذه الحروب نعمة لنا ، لو أننا تركنا حياتنا المزيفة ، ونبدأ من جديد فى عزم وقوة وإصرار) ثم ربت على ركبة ولده قائلاً : (انظر جيداً ما يدور حولك ، إن بعضهم يتحدث عن رتبة الميجور التى كان يشغلها أيام الحرب ، وعمّا خسره من قصور وإقطاعيات وعبيد ، والحقيقة أنه كان نفراً « جندياً » بسيطاً ولا يملك أى شيء ليخسره) واستطرد « روبرت » (ألم تسمع عن العالم الذى وصف الفيلسوف بأنه رجل أعمى يبحث عن قطة سوداء فى غرفة حالكة الظلام ، والقطة ليست موجودة أصلاً فى الغرفة . إن كثيراً من أهل الجنوب يتصرفون كما يتصرف هذا الفيلسوف ، يجلسون طويلاً يبكون خسارة شيء لم يملكوه . إن أمامنا عالم بأكمله يحتاج إلى البناء ، وحياة جديدة يجب أن نكون أحسن مما

هى عليه من قبل . يجب أن نكون على مستوى المسئولية) . وهنا قال « إدوارد » (ولكن يا أبى إنك دائم السخرية والتهكم حين يأتى ذكر عمى « تيودور » ومدرسته . لقد بدأ العمل أليس كذلك .. ؟) لقد بدأ العمل فى المدرسة فور وصوله إلى البلدة . فيرد الأب : (نعم لقد فعل حقًّا ولكن لا ينبغى أن نضحك على أنفسنا ونخدعها . لا ينبغى أن نحول الناس إلى جنود من قصدير . ونعدهم للقتال فى حرب قد انتهت . فإذا فعلت ذلك فيكون مثلك كمثل الرجل الذى يفتش فى الإسطبل بعد أن سرق اللصوص حصانه . يجب ألا نستمر فى هذا العمل المزيف وفى الكذب الذى أدى إلى تدميرك . يجب أن تؤدى العمل الذى خلقك الله له) ، وهنا سأل الصبى : (وما هو هذا العمل ؟) فنظر إليه الوالد برهة ثم قال : (عمل الرجال . فكن رجلاً لا يلتفت إلى الماضى ، ولا يبكى شيئًا لم يكن فى يده . كن رجلاً يرغب فى العمل ، ويتصرف كتصرف الرجال ، وفى اختصار كن رجلاً) ، فسأله الولد : (مثل من ؟) فتردد الوالد قليلاً ومذ بصره بعيدًا ثم قال : من .. ؟ .. من ..؟ مثل «جون فيبر» هذا هو الرجل . هذا هو رجُلُك ومثُلك) ثم ضرب المكتبة ضربة شديدة . وهنا قهقه « إدوارد » عاليًا وقال : (ربما يكون ذلك ، ولكنه كما يقول الكثير من الناس إنه يشبه القرد « فقال الأب » :

لا تهتم بما يقولون عنه . هذا رجل يقوم بواجبه . إنه صنف من الرجال نحن فى حاجة إليه) وفى هذه الأثناء سُمِعت دقات الناقوس الخارجي ، فنهض الوالد وغادر الحجرة .

الفصل التاسع

الناقوس يدق ثلاثاً

لقد ظهر « لإدوارد » مؤخراً أن طفولته كانت تحت تأثير دقات ناقوس المحكمة ، إذ كانت تراوده هذه الدقات طيلة طفولته . وقد أخذت تتغلغل فى كل ذكرى صغيرة كانت أم كبيرة أيام شبابه المبكر ، كما كانت تدق فى عنف ثم تختفى تدريجيًّا فى أيام الخريف العاصفة . كما كانت تُسمع هذه الدقات فى أيام الربيع الجميلة ، وفى أيام ازدهار الأزهار فى شهر مايو ، كما كانت تمثل النبض الحار أيام الوحدة فى شهر يونيو الحارة ، بين حفيف الأشجار وكأنها تدعو فى أول النهار قائلة له : « هيا إلى المحكمة » كما كانت تدعو بعد الظهر قائلة له مرة أخرى : « هيا إلى المحكمة » .

لقد كانت صرخة سريعة ومن الأعماق وضربة سريعة فى أعقاب الصوت ، حتى أن لسانها النحاس ، وضربتها السريعة كانت دائماً تتم فى آن واحد ، ولكنها لم تظهر فى نفس الشكل . لقد كان وقعها وترنيمها المستمر وضرباتها فى قلبه ورأسه ونفسه بكل ما فى قدر الإنسان وخطئه من عواطف واهتياج ، وكل ما قرأ فى الصوت وما تراءى وتخيل من معانٍ .

فهو لم يستمع إليها كصبى دون أن تتزايد ضربات نبضه ، ودون أن يحس جفافاً فى حلقه ، ففى الصباح المشرق للربيع ، كان يسمعها وكأنها تتحدث إليه عن وقت العمل ، وأنها تخبره أن العالم قد استيقظ ليعمل ، وأن يتحرك إلى الأمام كحركة اكتمال القمر ، أما بعد الظهر فإنها تتكلم بلسان آخر بأن تقول للإنسان النائم فى دفء الظهيرة أن أَفِقْ ، واطرح عنك هذا التراخى ، وامض بالعمل . كما تخاطب البطون التى خدرها الطعام الثقيل من الخضر والبقول والفول ، ولحم الخنزير ، والفطائر الساخنة وفطائر التفاح الساخنة ، أن جاء الوقت لتستعدوا للحركة وتعودوا للعمل ، إذ يجب أن يرتفع الإنسان بإرادته وخلقه على ما يهم البطن (الأكل) لأن العمل يجب أن يؤدَّى ، فإن المساء لم يحل بعد .

وللمرة الثانية يأتى الصباح ليتحدث عن الأعمال المدنية

لرجال القانون ، وعن القضايا والمنازعات والجلسات ، وأن اللهجة التى كتبت بها الوثائق ، فيها الأمر والرجاء ، وفى بعض الأحيان تكون لغتها تقول صائحة : تقدم إلى المحكمة ... ، تقدم إلى المحكمة ... ، إن ممتلكاتك هى ممتلكاتى ... ، إن ممتلكاتك هى ممتلكاتى ...

وفى صوت أجش ينادى بطريقة مبهمة « أنت تحضر إلى المحكمة » ... ، إلى المحكمة ... ، أو فى لهجة سريعة آمرة : المحكمة ... ، المحكمة ... ، المحكمة ... ،

أما بعد الظهر فإن جرس المحكمة يتحدث عن العقوبات القاتلة والمحاكمات والجنايات والموت والثأر ، عن هذا الرجل ضعيف الإدراك الآتى من الجبل ، الذى يقبع داخل قفص الاتهام بنظراته الشاردة المشدوهة ، وهو لا يدرى حتماً ما يدور من حوله ، والذى تلتهمه مئات النظرات الشرهة الحاقدة من النظارة فى القاعة وهو لا يدرك تماماً ماذا فعل ، لقد كان القاتل يذرف الدمع فى وله ، وقد شاب هذا الدمع لون أحمر هو الدم ، وكأن لون الحكم الأحمر قد انعكس على وجه الشمس فصبغها باللون الأحمر ، ثم أخذت الشمس فى الأفول خلف الجبل الأخضر البعيد تماماً كما أفلت حياة هذا الرجل .

لا أظن شباب المدن حاليًّا يدركون كيف أن المحكمة منذ ستين

عاماً كانت تشكل حياة الناس ومصائرهم فى جميع أنحاء أمريكا . لقد كانت المحكمة فى « ليبياهل » مركز المجتمع . فأهل الريف يأتون إلى البلدة للبيع والشراء ، ولكن حين يفرغون من ذلك يتوجهون إلى المحكمة ، ففى الميدان أمام المحكمة ، نراهم يتركون بغالهم وخيولهم وثيرانهم وعرباتهم ذات الغطاء ، وتجرى أحاديثهم الاجتماعية والجنائية ، ثم تجرى محاكماتهم كما تجرى أحاديثهم فى استرسال عن الاغتصاب والشهوة والجريمة . هناك كانت حياتهم بمشكلاتها ونظراتهم للأمور ومشاعرهم وأذواقهم حتى رائحتهم أيضاً .

وفى اختصار شديد يبدو فى المحكمة إطار الحياة الأمريكية ، وكذا يُرى الفرق بين القواعد وتطبيقها ، وأفكار الحياة هذه لا تظهر فحسب واضحة فى حديث الناس أو فى الأشخاص من أهل الريف وأهل الجبال الذين يجلسون عادة ويبصقون ، ثم يتسكعون على سلم المحكمة ، بل تبدو أيضاً فى البناء الذى يضم المحكمة . فالواجهة مبنية على الطراز اليونانى أو تقليداً لهذا الطراز بأعمدتها الضخمة العالية ، وفى قاعتها المربعة نجد منضدة القاضى ، وقفص المساجين ومنصة الشهود ، ومنضدة المحامين ومكان المشاهدين . وإلى الخلف يوجد علم الدولة ، وعلى الحائط علقت صورة محفورة « لجورج واشنجطون

George Washington » . لقد كان المظهر الخارجى لقطع الأثاث يوحى بعظمة وفخامة القانون ، وكذا الحياد عند تنفيذ هذا القانون . ولكن .... ، كان تنفيذ القانون لا يخلو من الأخطاء ، فهو فى ذلك مثل تصميم قاعة المحكمة فبعض أعمدتها على النمط « الدورى » ، والبعض الآخر على النمط « الكورنثى » ولكن عند فحصها تجد أنها مصنوعة من الخشب المخروط والطوب ، عليها طبقة من الجبس ، فتبدو وكأنها مصنوعة كلها من الحجارة .

لا يهمنا كثيراً أن نعرف ماذا تمثل هذه القاعة ؟ ولا من أى طراز هى من أطرزة فن البناء فى العالم ؟ ولكن المهم أن نلاحظ أن نوافذها الطويلة العالية كانت غاية فى القذارة ومظلمة وأنها لم تغسل بالماء منذ زمن بعيد ، كذلك لا يهم كثيرًا أن نتبين مدى التأثير النفسى الذى يوحى به الطابق الهرمى العلوى والواجهة على الفلاحين السذج ، ولكن المهم ، بل أهم من ذلك كله أن الممرات الواسعة المظلمة قد امتلأت بالأضابير والأوراق وألواح الخشب القديمة ، كل هذا قد غلفه الظلام والهواء ، غير النقى (الفاسد) هذا بالإضافة إلى السلم الذى يئن تحت الأقدام ، وكذا صوت الصنبور الذى ينساب منه الماء باستمرار . أما رائحة القاعة فهى تشبه رائحة الرعب والجريمة والقانون فى أمريكا .

رائحة صميم حياتنا ، بل رائحة كل جزء منا التى لا يمكن لأحد أن يخطئ فى معرفتها . ولكن ماذا كانت رائحة العدالة فى قاعة المحكمة فى أمريكا ؟ ! وماذا كانت رائحة العدالة والقانون والخوف والجريمة فى هذه البلاد الكبيرة الواسعة ؟ ! إنها رائحة متفردة . إنها خليط ماكر نتن مكونة من أشياء كثيرة كهذا الاتحاد الأمريكى . إنها رائحة تُكون وحدة لا يمكن تجزئتها .

دعنا نتغلغل إلى أعماق الجزيئيات الكيمياوية التى يتركب منها هذا الخليط : إنه مكون من رائحة العرق والطباق والعدالة والتبول ، ورائحة اللحم البشرى المر ، والنعال (القباقيب) المبتلة بالمياه القذرة ، ورائحة دورات المياه ، كل ذلك مخلوط برائحة المطهرات المصنوعة من القار والجير والشبة والنوشادر ، ومن القاعات المظلمة الرطبة ، والممرات السفلية ، والأقبية الباردة المرطوبة ، ومن رائحة المقاعد القديمة المهشمة ، وكذا رائحة بقايا المناضد والمكاتب ، ومن رائحة أكمام المحامين المنشاة ، وفوق كل ذلك كله فإنها مكونة من رائحة الأنات والفزع والنبض الباكى . وضربات القلب ، وتوتر الحناجر الجافة ، إنها رائحة الكراهية والهلع والعنت والجريمة والقتل . وإلى هذا السيل الكبير من تلك الروائح أضيفت لها كمية ضئيلة جداً من العدل والحق والجمال والأمل ، لقد كانت محكمة هذه المنطقة فى اختصار هى أمريكا

بكل جرائمها وآثامها ودمائها ، أمريكا الشقية والمتوحشة والعمياء والمجنونة ، وهي تنفجر من خلال ما نسميه مجازاً القانون .

لقد كانت أمريكا بآمالها الضائعة ، وأفكارها التافهة . أمريكا بشقائها بأخطائها بالأمل المفقود ، والأحلام الضائعة ، والأمنيات التي لم تتحقق . إنها أمريكتنا التي ننتمي إليها .

كان اهتمام « إدوارد . جويز » بالمحكمة اهتماماً مضاعفاً . فصوت الناقوس النحاسي لا يحدد ويؤكد فحسب كل تجارب حياته ، وإنما تؤكد فكرته عن أبيه . كان أبوه قاضياً في محكمة الاستئناف المتنقلة في بلدان المقاطعة . فإذا ما دق الناقوس فمعنى ذلك أن أباه في المدينة يرأس الجلسة المنعقدة ، وإذا لم يدق فمعناه أن المحكمة لم تنعقد جلساتها ، وأن والده يؤدي عمله في محكمة أخرى . فدقات الناقوس تعني الكثير عند « إدوارد » فإذا بدأ الدق فأبوه في المنزل ، وقبل نهاية الرنين فإن أباه في طريقه إلى المحكمة . فهذه كانت عادة أبيه عند الخروج ، ولم يره قد غيرها أو بدلها أبداً . وإذا أتى الوالد إلى البيت للغداء فتكون الساعة الواحدة تماماً . ومن عادته أنه يتناول الطعام في صمت المنشغل الفكر عمن حوله . فربما كان يفكر في القضية التي نظرها قبل وصوله إلى بيته وبعد الغداء يدخل إلى حجرة مكتبه حيث يتمدد على أريكة قديمة من الجلد ، ثم ينام أو يغفو لمدة ثلاثة أرباع

الساعة. وكان الابن يلاحظ أن والده عندما ينام فى ساعة القيلولة هذه فإنه يغطى وجهه بمنديل أبيض تاركاً جزءاً من رأسه الأصلع. كان فى بعض الأحيان يسمع شخيره فيرتفع المنديل ويهبط تبعاً لشهقه وزفيره كأنه شراع فى مهب الرياح.

ليس من المهم أن يكون القاضى قد نام نوماً عميقًا أو غير عميق، ولكن المهم أنه يستيقظ دائماً على أول دقة للناقوس. فهو يجذب المنديل من فوق وجهه، ثم يجلس معتدلاً وقد علت قسمات وجهه تعبيرات دهشة المذعور وهو يقول: «هذا هو الناقوس» ثم يقوم من مكانه ويذهب نحو المكتب ليجمع أوراقه ومذكراته ومستنداته فى حقيبة قديمة بالية، ثم يضع القبعة على رأسه ويخرج إلى حجرة المعيشة حيث تجلس والدة «إدوارد» مشغولة فى أعمال الحياكة «أنا خارج الآن»، يقول هذه العبارة بنغمة التحذير. أما زوجته فلا ترد عليه لأنها قد ألفت هذه العبارة كلما دق الناقوس. ثم يخرج من الحجرة إلى الباب الخارجى ويقف عنده قليلاً ويستدير نحوها قائلاً: «إنى ذاهب» فى هذه المرة يأتيه ردها «حسناً يا روبرت لقد سمعتك»، دون أن ترفع رأسها عن العمل الذى تقوم به، فيقول القاضى: «هل تريدين شيئاً من المدينة؟» فلا ترد عليه بل ترفع رأسها ويدها نحو الضوء لتدخل خيط الإبرة فى ميسمها. فيعود القاضى ويسأل «هل

تريدين شيئًا من المدينة ؟ » وهنا ترد الزوجة عليه : « لا يا روبرت أظن أن لدينا كل شيء وعند ذلك ينتظر القاضى لحظة ، ثم يرميها بنظرة تشكك ثم يستدير سريعًا ويزمجر قائلا : « حسناً إلى اللقاء إذًا » ثم يخرج من الصالة ، ومنها إلى الدرج ، ثم إلى ساحة البيت ، وكان آخر شيء يراه « إدوارد » من أبيه حتى المساء ، هو هيكل جسمه الضخم ، وقد حمل حقيبته وأوراقه تحت إبطه ، ثم يعبر الشارع وناقوس المحكمة مازال يدق منظماً بدقاته خطوات القاضى السريعة .

كثيرًا ما كان القاضى « روبرت جوينر » يقول إن قاعة المحكمة هى أكثر أماكن الدنيا إثارة بعد ساحة القتال ، فهى تتيح أحسن الفرص لمراقبة ومشاهدة الحياة والأخلاق . وعندما تعرض على القاضى « روبرت » قضية مهمة فإنه كان يصحب ابنه معه إلى قاعة المحكمة ليرى وليسمع بنفسه تلك الأشياء العجيبة .

وما إن بلغ « إدوارد » الخامسة عشرة من عمره إلا وكان قد ألم جيداً بكل الإجراءات القانونية ، كما شاهد أيضًا رجالاً قتلة يُحكم عليهم بالموت . لقد رأى المغامرات المثيرة والشاقة للبحث عن المتهمين ، والقبض عليهم ، والحيل الماكرة التى يلجأ إليها رجال القانون للتشكيك فى الأدلة والبراهين ، لفرض الاعترافات ، ولاقتناص واصطياد ومحاصرة الخصم . لقد استمع

إلى محاكمات لشتى من الجرائم كالسرقة ، والاعتداء ، والنهب ، والسلب ، والابتزاز ، والحرق الجنائى ، والاغتصاب ، والاعتداء على النساء ، والاختلاس . كما شاهد أنواعا عديدة من الأخلاقيات : كالمكر ، والحب ، والإخلاص ، والانتصار ، والهزيمة ، والألم ، والسعادة . حقًّا لقد كانت ساحة المحكمة فى ذلك الوقت أنسب الأماكن لمشاهدة ومعرفة مأساة حياة الناس وأخلاقهم وطباعهم ، فيكفى أن تشاهد هؤلاء الناس الذين يأتون لمتابعة المحاكمات (جمهور النظارة) لتعرف جزءًا كبيرًا من حياة البلد .

كان منزل « إدوارد » يقع فى شارع المدرسة يفصله عن المحكمة عدد قليل من البيوت ، إذ كانت المحكمة تقع فى الميدان ، وإذًا ليس غريباً أن يصل الأب إلى دار المحكمة قبل أن تنتهى دقات الناقوس . وعندما يصل القاضى إلى دار المحكمة فإن أول ما يقابله هى تحيات الكتل البشرية من أهل الريف والجبليين ، أو من مدمنى مشاهدة المحاكمات الذين اتخذوا من سلالم البناء وأروقته وجدرانه ناديًا لهم ، يجتمعون فيه منذ زمن ، أقدم من أن يتذكره الأهالى . وزعيم هذه الفئة (فئة أولاد الفراغ) ، رجل أطلق عليه « زخريا جويتر » اسم « لوكى تار Looky Thar » أما اسم الرجل الحقيقى فهو « بيرتل العجوز Old Man Purtle » .

« لوكى تار » هذا رجل اشترك فى الحرب الأهلية وفقد ساقه ، وأصيب فى حلقه (فمه) بجروح خطيرة تركت له ثقبًا فى سقف الحلق . ثقبًا على حد قول « لوكى تار » نفسه : « تستطيع أن تضع قبضة يدك داخله » . وبالرغم من أنه نجا من الموت بأعجوبة فإن هذا الثقب لم يمنع لسانه من الثرثرة ، لقد كان يفخر بهذا الثقب أكثر من ساقه المفقودة ، والواقع أنه كان فخورًا بالاثنين معًا أكثر من فخره لو رشح لنيل وسام الشرف . فهذا الثقب كان سببًا كافيًا فى حقه للحياة ، وفى حقه فى التسكع ، وأن يبرر كل شىء يقول أو يفكر فيه أو يشعر به لأن هذا الثقب على حد قوله « يضفى نوعًا من القداسة والإيحاء الإلهى على كل شىء » يقوله أو يفعله أو يشعر به .

فإذا اجترأ أحد وبلغت به القحة أو الجرأة ليتشكك فى معلومات « لوكى تار » (وهى معلومات تشمل جميع فروع العلم ، والتاريخ ، والسياسة ، والدين ، والرياضيات ، وتربية الخنازير ، وزراعة البقول ، والفلك) ، فيجب عليه أن يتوقع أن يفرض عليه السكوت فى قسوة ، بل ويوقف عند حده فى الحال ذلك لأن « لوكى تار » قد استمد سلطانه المطلق على مستمعيه من هذا الثقب الذى فى حلقه ، الذى يفرض احترامه على الجميع . ومهما كان الأمر أو الموضوع أو حتى المناسبة

والجدال ، فإن الرأى ما يراه « لوكى العجوز » . فالأسود يكون أبيَض ، والأرض مسطحة وليست مستديرة ، مادام يراها هو كذلك ، إذ كان يقول دائماً « الرجل الذى له مثل هذا الثقب فى حلقه لا يمكن أن يكون مخطئًا فى أى شىء ، فهو على صواب دائماً » .

أما إذا تعرضت معلوماته للمعارضة ، أو لمجرد المناقشة فإن كل جسمه يتبدل فى لحظة خاطفة ، ثم يقفز من مقعده الخشبى كالقرد ولا يعوقه فى ذلك تلك الساق الخشبية . وفى غضب جارف يؤكد كلماته فيضرب على الأرض برجله الخشبية ، ثم يفتح فمه الواسع (والله وحده يعلم متى وكيف يمكن قفله) ، فتبرز قلة من الأسنان الصفراء ، ثم يشير بأصبعه إلى الثقب ، وفى صوت خشن يقول : « هذا هو لوكى تار » اعلم ذلك يا سيدى الميجر ... ، ولكن ماذا تعلم أنت ! ؟ إنك لا تعلم شيئًا مطلقاً . أتجرؤ أن تناقش رجلاً اشترك فى الحروب من أولها إلى آخرها ، ثم خرج منها بهذا ، ثم يفتح فمه فيسمع لفكيه صوتاً ويظهر الثقب فى حلقه . فيعود الرجل الآخر ليقول : (أنا أعلم يا سيدى الميجر ، كما أرى هذا الثقب ، إن النقاش يدور حول : هل الأرض كروية أو مسطحة ؟ فأنا أقول : إن الأرض كروية) ، وهنا يصيح « لوكى » (أنت تقول إن الأرض كروية فماذا تعرف

أنت عن الأرض يا سيد ! كيف تعرف أنها كروية أو مسطحة ؟ .
أنت . أنت الذى لم تخرج من بلدتك ولم تشاهد شيئاً ! ! أنت
ترد على رجل ذرع الأرض ذهاباً وإياباً حتى فرجينيا ، ثم عاد
بهذا الثقب فى حلقه ، وإنك لتستطيع أن تضع قبضة يدك
داخله) ثم يعود ويدق الأرض بساقه الخشبية ويفتح فمه ويشير
منتصراً إلى الثقب بأصابعه القذرة .

أما إذا حدث ولم يعترض عليه أحد فإن « لوكى » يصبح
لطيفاً هادئاً ، فيتحدث بدون توقف عن تجاربه فى الحرب
والسلم ، مع الخيل والخمر والعبيد والنساء ، وخاصة النساء . إذ
كان « لوكى » ، يحكى قصصه عن النساء بصوت مرتفع أجش
مستعملاً ألفاظ الفحش والدعارة والتى تسمع على بعد مئات من
الياردات .

كان القاضى « جوينر » يكره « لوكى » أشد الكراهية ، فإن
« لوكى » فى نظره يمثل كل ما هو ممقوت . يمثل التحجر والجهل
والقذارة والشهوة والتكسب عن طريق ادعاء البطولة ، ولكن مع
الأسف ، فلا الغضب والكراهية والاحتقار كانت كافية ليختفى
« لوكى تار » عن الأنظار ، فقد كان لعنة وحملاً ثقيلاً ، وباعثاً
على الألم المكتوم . ولكنه دائماً كان هنا قابعاً على كرسيه الخشبى
المكسر بجانب باب المحكمة . لقد كان عبئاً لا مفر من تحمله والتألم منه .

فى كل مرة يقترب فيها القاضى من دار المحكمة كان أول شيء يفعله هو أن يلقى نظرة سريعة عندما يقترب من السلم ليرى إذا كان « لوكى » هناك ، فلطالما كان يأمل فى حدوث معجزة من السماء تخلص المكان من هذا الرجل « لوكى » ولكن واأسفاه كان لوكى دائماً فى مكانه .

الحريق والمجاعة والطوفان والوباء ، قد تجتاح البلاد وتفنيها عن آخرها ، ولكن « لوكى » كان باقيًا دائمًا يسمعه الناس ، وهو يحكى تجاربه فى الحرب ، بدون توقف لرواد المحكمة .

لقد كان « لوكى » هناك لتحية القاضى ، هذه التحية التى كان القاضى يكره أن تقدم له دون غيرها من التحيات . لقد لاحظ الناس قدرة « لوكى » هذا على القفز من كرسيه كالقرد الهائج إذا عارضه أحد ، ولكن حين يلقى بالتحية على القاضى فإنه يصبح الجندى المسن الضعيف الذى أقعدته الجراح ، ولكنه مصمم على أداء التحية لرئيسه العظيم مهما كلفه ذلك من جهد . ربما كان هذا المنظر الذى يتكرر كل صباح مسليًا للقاضى أو لكل من يشاهده ، لولا هذا النفاق الذى يكمن فى خلق هذا الرجل .

عندما يقترب القاضى من باب المحكمة يكون « لوكى » قد بدأ فى أن يتحف مستمعيه (وهم يلوكون الطباق) ، بقصصه الطويلة عن كيفية طرده للأعداء من ولاية فرجينيا . فيتوقف

فجأة عن الحديث ثم يقدم كرسيه قليلاً للأمام ، ويضع ساقه الخشبية على الأرض ، فيشهق ويلهث ويكاد يبكى ، ومع ذلك فهو مصمم على القيام بواجبه كمحارب قديم أو يموت دونه . وفى صوت ضعيف مدعيًا المسكنة يقول : (إنى خجلان أيها الأولاد أن أطلب المساعدة لأنى مضطر أن أقف على قدمى ، لأن القاضى قادم . فهل يساعدنى أحدكم على ذلك) ، فيندفع الكثير منهم لمساعدته على النهوض على قدميه فيترنح قليلاً ، ثم يستند على الأكتاف ويثبت نفسه وباهتمام شديد يرفع يديه فى بطء بالتحية ، تحية رجال الحرس القديم اعترافاً منهم بالجميل تمامًا ، كما فعل الحرس الفرنسى فى حضرة الإمبراطور نابليون فى « واترلو » .

لقد كان يخشى « إدوارد » فى بعض الأحيان أن يحاول أبوه شنق هذا القاتل العجوز الشجاع ، فلقد كان وجه القاضى يتلون باللون الأحمر كاحمرار الطماطم ، ثم تنتفخ أوداجه وعروق عنقه وجبهته كأنها حبال السوط ، ثم يدق بأصابعه الغليظة على راحة يده لفترة قليلة وهو ينظر إلى « لوكى » دون أن ينطق بكلمة ، ثم يستدير داخلاً إلى المحكمة .

ولكى يزيح القاضى عن نفسه هذا العبء الثقيل يقول لابنه فى كلمات مقتضبة ، ولكن تنفجر غضبًا واشمئزازًا : (هذا

هو أحد مقاتليك القدامى المشهورين ، أربع سنــوات فى الحرب ، وهو مستعد الآن لتمضية أربعين سنة قادمة وهو جالس عل عجزه . هـذا رجل مناسـب لك) ، فيرد الابن محتجًّا : (ولكن .. إن للرجل ساقًا خشبية) ، وعند هذا الرد يقف الأب فجأة فى مواجهة ابنه ، وقد احتقن وجهه البدين المربع الشكل ، وفى ألم مضن يقول فى صرامة : « اسمع يا ولدى (ويربت على كتفه بيده الغليظة) إن ساقه الخشبية هذه ليست لها علاقة بالموضوع ، إن هذا الرجل كغيره من الرجال نتاج لهذه الحرب ، فقد أصيب غيره وكانت نسبة الإصابات لكل ثمانية من عشرة . فلا تدخل الساق فى الموضوع . فإن فعلت ذلك فكأنك قد وضعت عصابة من العطف الزائف على عينيك لتمنع نفسك من رؤية حقيقة الأشياء ، وبذلك تكون رجلاً عاطفيًّا ومغفلاً كبيرًا مثله ». فيحملق « إدوارد » فى أبيه وقد علته الدهشة وقد أرتج عليه . وهنا يقول الأب فى تؤدة : (اذكر ما أقوله لك إن الساق الخشبية ليست عذرًا لكل شىء) ، ثم يدلف القاضى إلى داخل القاعة مسرعًا تاركاً الولد محملقاً فيه من الخلف ومشدوهًا وفى عجب طاغ ، ماذا يقصد أبوه من هذه العبارات والأفكار ، إنه سيكشف كل هذا قريبًا جدًّا .

الفصل العاشر

اليوم المفقود

شب «إدوارد Edward» فى فترة من الزمن اصطلح المؤرخون على تسميتها العصر المظلم لإعادة البناء ، فى حين أنه يذكر طفولته على أنها أيام سعيدة .

لقد عاش حياة طيبة فى الثمانينيات وحين كان يرجع بفكره إلى الوراء لتلك الحقبة ، فإنه كان يشعر أن الدنيا كانت صغيرة ، كما أن المدينة كانت صغيرة أيضًا ، وأنها كانت مملوءة بالأمل والحياة والنمو . لأنهم قد نجوا وتفادوا تماماً من الجمود والتبلد الذى كان ضحيته الجزء الأكبر من الجنوب ، والناس فى « ليبياهل Libya Hill » لم يحسوا شعور الأسى والألم من جراء الحرب . لأنهم كما قال القاضى « جوينر »

لا يملكون الكثير قبل الحرب مما يحزنهم فقده ، فسكان الجبال لم يكونوا أثرياء أبدًا ، ولم يعرف عنهم أنهم اقتنوا العبيد . إذ كانوا من صغار الفلاحين ، ومن رجال الصيد والقنص يعيشون حياة بسيطة فى بيوت خشبية ، وكان العبيد غير معروفين فى المدن الجبلية قبل الحرب ، حتى أن بعضهم لم ير العبيد مطلقًا قبل الحرب . وحتى فى مدينة « ليبياهل Libya Hill » لم يكن عدد من يملك عبيدا يربون على ستة أشخاص فقط من بينهم : الكابتن « دنكان العجوز Old Captain Duncan » كان يملك أكبر عدد من العبيد (أربعين أو خمسين) ، ذلك لأنه كان يملك مساحات واسعة من الأراضى الزراعية ، وطاحونة صغيرة ، فكان العبيد يعملون فى ممتلكاته . وكذا عائلة « بلاند Bland » ، فكان عندهم قلة من العبيد . وكذا « زخريا جوينر » ربما كان يملك نصف دستة (٦) من العبيد ، وأخوه « روبرت Robert » فكان له ثلاثة منهم . كما كانت أيضاً بعض العائلات المنتشرة هنا وهناك وعددها قليل جدًّا كانت تمتلك من العبيد واحدًا أو اثنين .

وعلى ذلك فلم تكن «كاتوبا الغربية» تعد من المقاطعات الغنية بزراعة القطن والدخان ، أو مالكى المساحات الواسعة المتزرعة ، والعبيد ، لذلك كانت خسائرها فى الحرب الأهلية

قليلة جدًّا ، وضئيلة ، خلاف ما كان يجب أن تكون ، أو ما كان يتوقع أهلها . فمدينة « ليبياهل » Libya Hill » في واقعها لم تكن سوى بلدة صغيرة غير نامية يعيش فيها سكان على الفطرة الأولى ، كما أنها محاطة بجبال « بلوريدج Blue Ridge » ، الـتى حالت وعزلتها عن التقدم الذى كان منتشرًا فى المناطق الأخرى من الجنوب . وأن تقدمها مازال منتظراً .

أما حياة « إدوارد » وعائلته الشخصية فى فترة الثمانينيات فقد كانت حياة مريحة ومليئة بالأمل ، ولكنهم على الرغم من ذلك ، كانوا بعيدين عن الثراء ، ولا يعتبرون من أثرياء البلدة ، إلا أن ظروفهم المالية ، كانت أفضل بكثير من جيرانهم . ذلك أن أباه كان يتقاضى مرتبًا (مرتب قاضى) ، وهو مرتب متواضع ، وكذا بعض من المال القليل يعود عليهم من بعض الإيجارات . كما كان لهم منزل قديم فى شارع المدرسة ، وقطعة أرض زراعية تبعد ستة أميال عن البلدة ، ورثوها عن جده لأبيه . كانت هذه الأرض مؤجرة لفلاح يعيش عليها . ولكن كانت العائلة تذهب إليها لقضاء فصل الصيف ، ولقد أجمعت جميع الأقوال على أن دخل الأسرة كان حوالى ثلاثة آلاف دولار سنويًّا ، وكان يعتبر دخلا كبيرًا فى الجنوب إبان الثمانينيات .

وأهم من ذلك كله أن القاضى «جوينر» كان مثل «جون فيبر Jhon Webber » رجلاً مشهوراً بالاستقامة والصراحة. كما كان جو المنزل (كما هو الحال فى كل شىء يفعله روبرت جوينر) كله نشاط ومرح وكرم. فكان البيت مفتوحاً دائماً للزوار، ولا يمر يوم دون أن يستقبل زائراً أو أكثر، مما جعل البيت دائم الاستعداد لتوقع الزيارات، أو الإقامة معهم، مما خلق من حياتهم فى المنزل جوًّا من البهجة والاستعداد للاستقبال والوداع، وخلق لهم متعة خاصة فى الترحيب بالقادمين ورنة أسى لتوديع المسافرين.

وكما أسلفنا رأينا أن البلدة كانت فى أولى خطواتها نحو التقدم والخروج من قوقعتها وعزلتها، ولقد كان «إدوارد» كبقية الناس يشعر ويسهم فى استقبال ما ينتظر للبلدة من أمل براق ومستقبل قادم. لقد كان وصول السكة الحديدية عبر الجبال علامة ورمزاً لهذا المستقبل الباهر وللعصر الذهبى للبلدة. فلقد انتظر السكان مقدمها فى شوق وتلهف. حتى جاء أخيرًا هذا اليوم العظيم حين تم وضع القضبان الحديدية ولم ينس «إدوارد» أبدًا يوم الاحتفال الذى أقيم فى أبريل عام ١٨٨٤، يوم أن احتفلت البلدة فى فرحة عارمة، واستقبلت الكابتن العجوز «بلى جوسلين Billy Goslin» بقاطرته، (بفنج بلى Puffing Billy)

حين دار بها حول المنحنى ، وسار بها حتى المحطة وهو يقرع جرسها الأصفر الرنان ، ويطلق صفيرها ، فهرع الجميع من نساء ورجال وأطفال لاستقباله هاتفين مهللين ومنشدين بموسيقاهم .

لم يكن يعى « إدوارد الصغير » وهو يقف إلى جوار أبيه وأمه على الإفريز معنى كل هذا ، ولكنه أدرك أخيرًا المعنى لهذه القاطرة ، أدرك أن الدنيا قد أقبلت عليهم .

ولم يكن قد مضى على هذا الحدث وقت طويل ، فقد مضت بضعة أشهر على الحديث الغامض الذى دار بين والده ، وبين « لوكى تار العجوز Old Looky Thar » وكان الولد جالسًا فى حجرة المكتبة فى ساعة متأخرة بعد الظهيرة . وغارقاً فى قراءة كتاب عن تاريخ معركة « سبوتسلفانيا Spotsylvania » والذى كتبه أحد القادة الذين خدموا تحت إمرة القائد « هانكوك Hancock » وكان حاضراً تلك المعركة ، لقد انتهى من قراءة وصف الحركتين الأوليين لهذه المعركة الدامية ، إذ هاجم « هانكوك » مواقع جنود جيش الاتحاد ، ثم دفاع الاتحاديين المستميت ، واستمر الولد فى القراءة حتى نهاية الحركة الأخيرة ، إذ كان القتال ضاريًا وفرديًا يدًا بيد ورجلاً لرجل ، وشملت المعركة كل الساحة ، ولقد امتد هذا

الصراع الوحشى ودام وقتاً طويلاً . كما جاء على لسان هذا الضابط الكاتب (فإن كل قدم من الأرض قد خضبت باللون الأحمر من كثرة ما أريق من دماء) ووقع نظره أخيراً وفجأة على هذه الفقرة التالية :

لقد كانت هناك معارك عديدة لهذه الحرب ، وقد اشترك فيها عدد كبير ، وكانت فيها الخسائر أفدح ، وجرت فيها العمليات العسكرية على نمط وحجم أكبر ، ولكن فى تقديرى الشخصى لم يكن هناك قتال فى العصر الحديث ، قد دار بوحشية ودمار كهذا الذى جرى فى هذه المعركة الفردية (اليد باليد والرِّجُل بالرِّجْلِ) فى « سبوتسيلفانيا Spotsylvania وخاصة فى الساعات الأخيرة من المعركة ، فقد قاتل الرجال من الجيشين المتحاربين أصبعًا بأصبع . وقد وقف جنود الجانبين على الحاجز الترابى ، يطلقون النار دون هدف وفى غير وعى . حتى أنه إنْ سقط رجل حل محله آخر فى الحال ، ولم يتأخر أحد فى هذا العمل مهما كانت رتبته العسكرية (من رتبة نفر حتى رتبة قائد) لقد رأيت قواداً يقاتلون كتفاً لكتف مع الجنود العاديين ، لقد رأيت « جويتر » بين رجاله الجبليين الشجعان يقاتل فى شجاعة يطلق النار ، ثم يحمل الجرحى ، وظل كذلك حتى أصيب وحمله رجاله بعيداً ، لقد أصيب فى ساقه اليمنى إصابة بالغة .

ظللت عيني الطفل (الولد) غمامة من الحزن، وتلاشت فجأة عنه الأحلام الذهبية والأناشيد التي كانت تسمع في هذا اليوم. وقام الولد واقفاً وغادر حجرة المكتبة، وهبط إلى صالة الجلوس ممسكاً بالكتاب مفتوحاً، وحين وصل إلى قاعة الجلوس لمح أمه جالسة وقد رمقته في تساؤل، ثم نظرت إليه وقامت إليه بعد أن وضعت أدوات الحياكة جانباً على المنضدة وقالت: « ما الخبر! ؟ ماذا جرى ! ؟ » فسار إليها في خطوات ثابتة، ولكنه لا يسيطر على ساقيه وقال « هذا الكتاب » بعد أن عرض عليها الصفحة. (هذا الكتاب اقرئي ما هو مكتوب) فالتقطت الكتاب في سرعة وقرأت، ثم ناولته الكتاب ثانية بيد مرتعشة، ولكنها قالت في نبرات هادئة حسناً...

فقال الولد: ما هذا الذي كتب أهو عن والدي.. ! ؟ فأجابت: نعم، فحملق في وجهها ثم ابتلع ريقه في صعوبة وسأل: معنى هذا أن أبي ...، وفجأة انخرطت أمه في البكاء، ثم أحاطته بذراعيها، ثم قالت: بنيّ العزيز إن أباك فخور بذلك، ولم يشأ أن يطلعك على ذلك، فهو لا يحتمل أن يعرف ابنه أنه أعرج، ففطن الابن في الحال لما قاله له أبوه مرة، وقد عرف ما كان يعنيه بهذا القول..

أعرج ...

مضى على هذا نيفاً وخمسين عاماً ، ولكن عندما كانت تعود الذكريات لابن « روبرت جوينر » فإن هذا المنظر يمر أمام عينيه فى حزن ، وشيء ما يكون كقذى فى حلقه وأن الأشعة الذهبية والأناشيد التى تخرج من الشمس وكأن هذا اليوم الضائع لم يكن فى الربيع منذ زمن طويل قد مضى .

أعرج ... إنه أعرج

إنه يستطيع أن يرى رأسه الأصلع ووجهه الأحمر ، وهو يعرج فى وضوح حين يدلف إلى المحكمة ، إنه يسمع رنين الأجراس السريعة والحادة كما يذكر « لوكى تار Looky Thar » وأصوات المترددين على قاعة المحكمة ، وحركات الناس وهى تمر ، والمحاكمة والمحامين والمتهمين ، وحضور الجنود بالمنزل ، وأحاديثهم عن شتى المواضيع ، ومايحضرونه من أنواع السحر ، وأحلام هذا الفتى ، وما يملأ قلبه من أحاديث الحرب والعظمة ، وكذا القواد العظام . كما تخيل والده الرجل البعيد عن الحروب ، كما كان يظن بوجهه الهادئ ، حين يدلف إلى قاعة الجلسة ، وجاهد نفسه ليذكر والده وهو يتحدث إلى القائد « جوردون Gordon » فى ساحة القتال ، أو وهو يقوم بالهجوم على غابات « جتسبرج Gettysburg » ،

أو وهو مصاب راكعًا على ركبتيه حين أصيب فى « سبوتسلفانيا » ، لقد فشل الغلام فى تصوره على هذه الصورة البائسة ، فلقد وجد هذا التصور ضرب من الجنون أو السحر ، حتى يرى هذا الرجل وسط أصحاب الوجوه الحمر والرءوس الصلعاء... فى وادى « فرجينيا Virginia » منذ أكثر من سبعين سنة مضت .

لكنه أعرج ... ؟ لا لا عرج فإن ابنه لا يمكن أن يعرفه أعرجاً ، فهو فى نظره أقوى رجل ، وأكثر استقامة وأبعد الناس عن العرج .

مضى على هذا نصف قرن ، ولكن حين تعود الذكرى بابن « روبرت جوينر » إلى هذا اليوم الضائع ، فإنه يسترجع فى ذاكرته ذكريات كل ورقة شجر ، وكل زهرة وكل ضوء ، وكل ظلال جاءت أو عادت من الشمس ، وكذا الميدان المليء بالتراب والبغال ، ومجموعات الثيران والخيول والعربات الريفية وما عليها من حاشيات من القش... ، وقاعة المحاكمة وروادها ، « ولوكى تار » العجوز ومجموعة بغال « ويبر Weber » ، وهى تعدو عابرة الميدان ... ، وكل باب فتح وكل بوابة أغلقت . وكل شىء قد مر بالبلدة فى هذا اليوم ... ، والنساء الجالسات على عتبات الدور فى طرف

بلدة « نيجرتون Niggerton » ، وكذا العاهرات يتنفسن فى يوم دافئ ، وكل شىء يمكن أن يحدث فى أثناء الليل ، وجميع الأشياء المعروفة وغير المرئية وكل شىء يدور فى وجدانه ، وكل ما يدور فى بلدة صغيرة جبلية فى الجنوب ، وما يحصل فيها من خمسين عاماً مضت ، وهكذا يمضى الزمن كما يمضى أزيز النحل ، وكما تمضى الأصوات الراتبة فى الغابة ، أوكظلال السحب على سفوح التلال والجبال والمراعى ، أو كما يتلاشى رنين الأجراس المتلاحقة فى قاعة الجلسات .

والآن وقد مات والده ومضى على دفنه وقت طويل ، الوالد الذى يعرج دالفًا إلى قاعة المحكمة ، والذى كان فى « جتسبرج Gettysburg » كما دفن ميت آخر مع غوريللا فى طول ذراع قرد .

ولا يزال يمر الزمن ، كما يتساقط ورق الشجر ، وتذوى وتذبل الزهرة ويمر الزمن كما يمر النهر بفيضانه ، ويمر كما تمر العجلات وتقلم أظافر الحيوان . يمر الزمن كما يفنى الرجال ولا يرجعون ... ، إلهى العظيم أنت وحدك الذى تعرف أن الأرض وأن الزمن وأن الحياة كلها أغرب من الأحلام .

الفهرس


صفحة

الفصل الأول	: وكان الموت أسبق	٣
الفصل الثانى	: رجل القبيلة العجوز ...	١٣
الفصل الثالث	: التصدع الكبير	٢٦
الفصل الرابع	: كيف ذهبت عائلة جوينر إلى المدينة	٤٠
الفصل الخامس	: الفارس ذو الريشة	٦٥
الفصل السادس	: معركة مرتفعات هوجوارت	٧٧
الفصل السابع	: الغريب صاحب المبدأ والفكرة	٩٩
الفصل الثامن	: بعث الحياة	١١٥
الفصل التاسع	: الناقوس يدق ثلاثاً	١٣٣
الفصل العاشر	: اليوم المفقود	١٤٩

رقم الإيداع		١٩٨٢/٢٣٥٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٠٠٧-٧	ISBN

١/٨١/٦٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هذا الكتاب

«ولا يزال يمر الزمن كما يمر النهر بفيضانه ، وكما يفنى الرجال ولا يرجعون [illegible] العظيم أنت وحدك الذى تعرف أن الأرض وأن الزمن وأن الحياة كلها أغرب من الأحلام»

بهذه العبارات الأخاذة التى تنم عن أحاسيس مرهفة وفلسفة عميقة [illegible] الكاتب الكبير توماس وولف إحدى روائعه الكلاسيكية التى تحوى قصة ثلاثة أجيال لأسرة [illegible] ومن خلال أسلوبه الرائع نتعرف على شخصيات إنسانية وأخرى واقعية [illegible] تعيش فى بلدة أسطورية تدعى «[illegible]» فى القرن التاسع عشر.